كريم بلاد

أنا... بصيغة أخرى

مجموعة قصصية

كريم بلاد

أنا... بصيغة أخرى

مجموعة قصصية

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا... بصيغة أخرى

مجموعة قصصية

كريم بلاد

طباعة وتصفيف ونشر: المطبعة المركزية، أيت ملول

رقم الإيداع القانوني: 2022MO3562

ردمك: 978-9920-40-297-2

الطبعة الأولى: نونبر 2022م

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى

وفاء

مَن تعرفني في صيغي كلها، وتحترم تقلباتي بين صيغة وأخرى.

إليها،

حتى أعود كما كنتُ"أنا" عاقلةً.

إضاءة

"أنا" الساردِ متضخمةٌ جدا، تستوعب النرجس وأسطورته، وتنآى عن فرويد وتأملاته. برغم ذلك، أصررتُ على أن أرافقها في رحلة البحث عن أناها، متلبسة بشخوص من الحياة، ومن الخيال، يبرز كريم عَلما، ونهى امرأة كل الحيوات. وظللت في تلك الرحلة قريبا منها أسمع وأرى.

المؤلف.

أنا... وأبي

قلت لأبي أنام إلى جنبك ساعة أو بعض ساعة، فأحدثك عني وعن أملك فيّ، بعدما تركتني لنفسي، وذهبت بعيدا، بعيدا جدا. سأحكي لك عن أملي الذي ربيته لي، وكنت حريصا على أن أكشف لك عن وجهه الممتقع لتمسح عليه، فيتجدد كل حين. ورغم أنك تركتني مبكرا، ولم أفطن إلى إصرارك على الرحيل، حتى دهمت، وفوجئت، كنتُ ساذجا وكنتَ مبيتا نية لم تطلعني عليها، كما أطلعك على نياتي .

تمددت ولم يسعني المكان، ووجدت جسدي الذي خرج منه ونما بعيدا عنه، قد طاوله، وتجاوزه. قلت مرد ذلك إلى كبره في السن، وتكمش عظمه، وقلة لحمه، وزهده في الأكل الذي كان بالنسبة إليه مجرد عادة، عادة لاهية،

مملة. انقلبت على جنبي الأيمن، لكي يسعني المكان، أو بالأحرى ليسعنا معا. في الحقيقة النوم إلى جانب والدي مما كنت حريصا عليه، صغيرا ويافعا، أسمع لحكاياته عن سلاطين الجن، والفتيات العذارى يخططفهن الملك، وكيد المرأة التي تغار على زوجها من نفسها. أغمض عيني، وأسمع، بل أتشرب سلطة الحكاية، وسطوة الكلمة التي كانت في البدء. للحكي من فمه طعم شقائق النعمان، وللتوقفات بين الفينة والأخرى في سرده إيقاع منتظم، يشبه موج البحيرة، يصل إلى الشط بين وقت وآخر، بين ريح وريح، بين دفع ودفق. عندما تتلاشى الحكاية القائمة بيننا، أكون تلاشيت قبلها، ورنَّقني الوسن، وإن قاومت حتى تنتهي هي، وتنسكب من فمه خيوطا دقيقة تتقطع، أحسها ثقيلة، متكررة، أفتح عيني، وأتابع إغماضه، ثم حركات شفتيه تتدحرجان على وقع الزفير والشهيق. وحينها أتساءل وأنا أقلب طرفي بين شفتيه، وصدره يعلو وينخفض في هدوء شجرة سدر، أقول أين الحكاية؟ هل عادت إلى صدره أم تلاشت في الهواء كلمات تبقى طائرة، مشتتة. ثم أفطن إلى نفسي الراسية على جزيرة من جزر الحكي، وأستسلم. تكون الحكاية قد استقرت في قلبي، وأكون قد أممتها، أي

تحولتُ أمًّا تحبل بها. هل كان أبي يلقحني أنثى الحكايات؟ هل كان يعلم أني أحبل بها؟ هل كان...؟

أنام الآن إلى جنبك يا أبي وأحدثك عني حكاية لم تقلها لي، ولم أسمعها منك. تناسلت زمنا، ونفضت عني السر الدفين، وها أنا في الحياة أحكي لنفسي قبل أن أحكي لأحد. إني أكتب لنفسي يا أبي، والكتابة حكاية مرقونة، يجلسون إليها متى شاؤوا، وحدهم ومع أحبائهم الذين لا يزالون إلى جنبهم. ليس مثلي أنا الحاكي الذي لم يخرج من صلبه ذكر يلقمه رأس الحكاية، أو يطعمه من قصعتها. لكني راض يا أبي، راض، لأني سأكتبها، وأحفظها، وأنقلها زمنا وآخر.

الآن.. اِسمع إلي، واتركني لأحكي لك عني.يا أبي..

لا تعلم ما حل بي مذ تركتني وحيدا.

أنا... ونهى

أفقت في صبح من الأصباح فألفيتُني رجلين.

واحد فيّ، والآخر يتجهّم في وجهي.

احترت في أيهما "أنا" الحقيقية، وطفقت أنظر من حوالي، أسائل العالم الذي غدا متحولا ممسوخا. في الآونة الأخيرة، تغير كل شيء، حتى القلب الذي أحمله، أفاتحه في معتقداتي القديمة فينبس إلى روحي بأن دوام الحال من المحال، وأن الدأب على سيرة واحدة لهو مما يعكس جبن الرجل بل وخَبَله. وبسرعة بديهتي التي أعتزّ بها، فهمت تجهم الواقف قبالتي، إنه المعتقد القديم الذي نفر مني عندما أفقت كافرا بكل ما كنت أومن به من قبل.

واجهته بعبارة واحدة، وعزمت ألا أفاتحه في نقاش من أي نوع كان. هو يعلم جيدا أنني لا أناقش في مسائل بديهية، سبقني إليها أسلافي من العلماء والفقهاء والمتكلمين

والفلاسفة، وعامة الناس الذين لا أعتد بكلامكهم، فهو مردود عليهم، لكونهم صمّا بكما لا يعقلون شيئا من أمور الدنيا ولا أمور الآخرة.

قلت له: "إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف شاء".

وبمجرد ما أنهيت عبارتي، سمعت من حوالي أذني صلصلة شديدة لحقها تصفيق حار، وضحك ماجن، بصوت أنثوي أخّاذ. غمزت الواقف إلى قبالتي وعيرته بوسطاي، فابتعد وذرفت عيناه دما، ثم انقلب إلى الجهة المقابلة من الحياة وسرى. لكنه لم يختف مطلقا، أحسست به قريبا مني، ولكن ليست لديه القدرة على مواجهتي أنا الرجل الجديد في جسدي القديم. في خضم تلك المفاجأة، احتضنني جسد بضّ، حارّ في لذة، شامل لكل عضو فيّ، تلبسني كأنه الروح الجديدة تنبض حياة وألقا.

رائحته هذا الذي عانقني بقوة المشتاق المستهام، نفاذة، ذكية، بطعم شجر الجنة، وفاكهة الصيف، ورحيق الربيع على ذروة جبل توبقال العتيد، وفي لون نحل

البراري. غدا لباسا يدثرني، ويحجب عني أكثر وأكثر ما كنت أومن به من قبل.

كفرت حينها بكل شيء.

نبذت ماضيّ في حضن زوجتي العزيزة.

تنكرت لطفولة صغاري في ذاكرتي المتعبة.

تنصلت من نسبي فردا من آل مازيغ.

يكفيني لباسي الجديد لأوثق عرى الصداقة مع عالم متحول لا أدري إلى أين سيقر قراره. ولا إلى أين سيؤول. وتلك حسنته. ومهما كان الأمر، فإن ما كنته لا يستحق أن يُحمل أكثر مما حُمل. معتقد بال، وثقافة قديمة، وفهم عبيط، وسيرة متناهية في الحقارة، وطموحات لا تتحقق أبدا، وأحلام تُنسى بمجرد تنبهي من النوم.

ما قيمة هذه التفاهات؟

لاشيء ألبتة.

إذن، فأنا الجديدة تستحق أن أعتز بها كينونة تنفرد في عالم يطغى عليه الجبن والخوف من المعرفة. أحسست بأفكار جديدة تنمو بداخلي بكثافة لا مثيل لها، وأنها مشمولة في كنف الجسد الأنثوي الذي يلفني، ولا أدري كيف ألتف عليه، فأشبع فيه شبقي أنا الذي طلقت زوجتي منذ شهرين.

التجهم اصاعد من الماشي قريبا مني. ينغصه التحول، ويريد أن يسأل ويستنكر، ولكن مانعه عن ذلك سرّ لم أستطع أن أحله. وما يعنيني حله، أنا في بناء جديد، وتحول رشيد.

أعلنت كفري صارخا بشكل هستيري، فاشتدت الصلصلة، وتعالى التصفيق والصفير. أحسست بالجسد الأنثوي اللايرى يتشكل من حوالي في صورة هلامية كأنها شخص شفاف تحجبه عني غشاوة على عيني. أيقنت أن الغلو في الكفر، يزيد الشخص وضوحا وبيانا. استدرت إلى رجلي، واقتربت منه، وتجهمت بدوري في وجهه، وكشرت فيه، كأني كلب يود الانقضاض على كلب آخر ينازعه أنثاه. تراجع التجهم على وجهه، وتقلص حجمه، وصار كلبا هزيلا فعلا. أردته أن ينبح فيقول شيئا، أو يدافع عن نفسه،

فضعف الآخر وهوانه على نفسه أمام كل قوة ضاربة مما أستهجنه، ويا لغرابة الفكرة، فهذا الأمر لم يتغير فيّ، هكذا كنت دوما، لا أحب التطاول على أحد، ومن تعرض لذلك، فأرى بأنه يجب أن يرفع صوته وعقيرته مدافعا عن نفسه الهزيلة.

تضخمت أنثاي إلى جانبي، وفي لمح البصر، وأنا مخطوف بين الحياة والموت الذي لم أدر من أي الجهات داهمني، انسل مني الجسد الأبيض البض، واستقام امرأة في غلالة شفافة بلون السماء.

- نهى!!!
- كريم لا تنظر إليّ هكذا.
- تلبستِني شيطانة ماردة، فخلصتني من ضعفي في اتباع التعاليم الفارغة قبل هذا.
- كيف وجدتني في شكلي الجديد؟
- أكاد أجن.

وجلست إليها، ركبتاي على ركبتيها، ووجهي على وجهها، ويداي في يديها، والنار تشتعل بيننا ألسنة من لهب لذيذ، يفني ما بقي من حشاشة الروح المؤمنة والجسد

العفيف الآيل للسقوط. تجلى لي وجهها براقا، بأنياب حادة بيضاء طويلة كأنها أنياب خنزير، وعيناها طويلتان رماديتان برموش قليلة، وأهداب مرتخية، شعرها القليل ينسدل على كتفيها الرقيقين، فيغطي على أثدائها الثلاثة ذات الحلمات الغليظة، بطنها عارية تحمل سرتين متراكبتين واحدة فوق الأخرى، وفخذاها رقيقان، في حجم ساقيها، وقدماها تشبهان قدمي نعامة.

- ألم تنفر من شكلي؟
- أجمل به، كم كنت غليظا فظا في ذوقي القديم.

التفت إلى يساري، فوجدت كلبي يتصاغر أكثر فأكثر، حتى صار في حجم قط هزيل. دفعته بأصبعي، فسقط على الأرض، وأطلقت نهى ضحكة مدوية، اندثر من أشداقها لعاب لزج، يلصق فلا يمسح. نظرت إليها، وضحكت بدوري. تتبعنا رجلي، ومشينا خلفه على ركبنا وأيدينا، ونحن نحصره بيننا، لا مفر يفر إليه، ولا قوة له. تقهقر فأصبح في حجم فأر بالغ، لم يعد يقدر على المشي، دفعته نهى بإصبعها، فالتف ينظر إليها بعينين دامعتين. نظرنا في عيني بعضنا، وضحكنا بمجون. أمسكت سبابتي

بإبهمي، فأطلقتها، وضربته، كما كنت أفعل بأقلام التلوين وأنا ألعب مع أقراني بالمدرسة. ضربته، فتدحرج ككرة صغيرة حتى سقط في المجاري. انحنينا كلانا على شقوقها ننظر هل سنراه للمرة الأخيرة، فنرثيه بحزن شفيف، ولكن لم نر شيئا، تناهى إلى سمعنا صراخ بشري واهن قبل أن ينقطع فجأة.

جلسنا على فتحة المجرى، فقالت نهى:

- شكلك البشع الذي يشبه شكلي يكاد يصيبني بالحمق.

فأيقنت سرّ تجهم رجلي في وجهي هذا الصباح.

المرأة والمطرقة

قبيل التنبه من النوم، يأتيني الهاتف بعيدا غير واضح، غمغمة غير مفهومة، لكنها تصلني، تزعج نومي الذي أحب الاستيقاظ منه بريئا كوجه أمي، وشفافا كجناح فراشة خرجت للتو من شرنقتها لتعانق الحياة. أصده، أضع الوسادة على أذني، أتكور على نفسي، فيبتعد كأنه في كهف سحيق.

فجأة يهجم عليّ دقٌّ متواصل على جمجمتي، مطرقة حديدية تواصل الضرب على أصداغي، أحس حينها أنني قد تحولت قزما صغيرا بداخل جمجمتي أسمع كل شيء بوضوح تام، بل إني أرى كل شيء بوضوح أتم. المطرقة كبيرة جدا، وحديدية كلها حتى مقبضها، واليد التي تمسك

بها برونزية بلون محايد كذنب مقيت، والفضاء من حولها مكفهر بضباب كثيف أسود فاحم.

أنظرني من داخل رأسي معلقا بين السماء اللامتناهية والأرض البعيدة ذات القرار غير المكين. كيف يمكن لهذا البائس الممد على الفراش أن يشمله الحول والقوة، وهو فريسة هزيلة بين أيدٍ مجهولة عابثة؟ ولا يكاد السؤال يستقيم حتى تهوي المطرقة على رأسي بعنف وقسوة، فترتجّ أعضائي كلها من هولها، وأشعر بالاهتزاز يرج كياني كله. وعندما تهدأ تلك التذبذبات، أعود إلى التملي في جسمي، وطرح السؤال اللايجدي من جديد.

هل أفيق فأضع حدا لهذا العبث اللعين؟

هل أستمر في النوم اللايشبه نوم البشر فأجعل هذا الساديَ يستمتع بالضرب على رأسي البريئة؟

هل أصرخ من داخلي فيه، وألعنه، فأقول له ابحث لك عن رأس غير هذه تهشمها؟

لا بأس..

سأتابع معه اللعبة المقرفة.

فتحت عيني داخل جمجمتي ولم أفتح عيني على فراش نومي، ورأيت المطرقة طائرة صاروخيا نحو رأسي لتهشمها، لكنها فجأة توقفت، واستحالت إلى يد امرأة تهمز كتفي. فتحت عيني التي في رأسي على فراشي، فأفقت. أحسست بصداع خفيف ينتشر في رأسي، وبقشعريرة باردة تتخلل شعري فيقف شائكا، قلت مع نفسي ربما أموت قريبا، أو يغمى علي من اضطراب النوم المستمر أسابيع طويلة.

امتلأت رأسي الحقيقية بأفكار غريبة عني أنا الذي كنت شخصا عاديا قبل نومي بغرفة نومي في الطابق الأول من بيتي الذي بنيته من مال البنك قرضا مؤجلا بفائدة غادرة. كيف أصير متحولا على مستوى الفكر والروح بين ليلة مضنية وضحى لم أتبين معالمها الحقيقية بعد، فالستارة لا تزال مسدلة على نافذتي الطويلة، والأباجورة ترسل ضوءا خافتا انكسر جماله بضوء النهار الخافت الذي يغمر الغرفة. قمت من مكاني، أبحث عن مطرقة حلمت بها ليلا، سمعتها سقطت إلى جانب السرير من دون أن أعرف من أي الجهات جاءت، ولا الشخص الذي كان يحملها. أزلت الغطاء من على السرير، لا أستطيع أن أرى بوضوح،

توجهت إلى النافذة، وأزلت ستارتها بحركة سريعة، فغشيتني أشعة الشمس اللامعة، استدرت باحثا، جلت في الغرفة، أزلت بعض الملابس الملقاة على أرضيتها، فتشت بجانب صوان الملابس، خلف الباب الذي كان مشرعا، حركت مشجب الملابس من مكانه، ونصبته عند الباب تماما. لم أجد شيئا، لا أثر للمطرقة.

اقتنعت بما لا يدع مجالا للريب أن المطرقة خيال من صنع كابوس ضارب على سندان جمجمتي، وأنني برغم ما أحسه من تغير في باطني ما أزال الشخص الذي كنته قبل النوم بقليل. لكن كيف أقنع رأسي الحقيقية أنني كذلك؟

خرجت من بيتي بعد أن تناولت فطوري قهوة سوداء بسكر زائد، استغربت كيف قدرت على تناول سكر زائد، برغم تشديد الطبيب لهجته الآمرة لأبتعد عن كل طعام يحتوي سكرا، بله أن يكون زائدا. زالت الغرابة بمجرد ما استقلت سيارتي التي أركنها أسفل المنزل، المسافة بين بيتي ومقهاي التي لم أكن أرتادها قبيل نومتي المحولة إلا قليلا، قصيرة جدا، بضعة أمتار على مسافة مستقيمة على شارع الحرية.

ركنتها بجنب المقهى مباشرة، وجعلت عجلاتها الأمامية ترتقي الرصيف الذي يوصل الكرصون كراسيه وطاولاته إليه. خرج إلي الحسين غاضبا يتطاير اللهب من وجهه الممتقع، محتجا على سلوكي ذاك، وأنكر بلكنته العربية الممزغنة أن يصدر فعل مثل هذا مني أنا الأستاذ القارئ، ولكن إجابتي عجلت بتقهقره المنكسر.

- سير فحالك، الراس لي ما يدور كدية.

ثم عقبت بعربية فصيحة مما عقلته قبل نومتي المحوِّلة:

- دوام الحال من المحال، ألا يحق للإنسان الحر العاقل أن يتحول عن سلوك، وينكر مبادئه القديمة، ويصبغ على نفسه لوكا جديدا يجابه به الحياة المتحولة سريعا؟ ألا يملك ذلك؟ ألا يملك ذلك؟

تجهمت في وجهه، وقد كان يقف إلى نافذة سيارتي، وأنا لا أزال وراء المقود، خاطرني هاجس إقحام مقدم السيارة بشكل أكبر نحو الأمام، حتى تجد لنفسها موطئ عجلة بين كراسي مقهى السعادة، فتشرب نخب التحول

والارتقاء الذي لا يعرف عنه داروين البئيس شيئا يذكر، ولا فرويد العزيز بوصفه عالم الأحلام الذي غدوت أفضله منذ اللحظة، وأقدمه على زفزاف وشكري والجويطي وبوزفور وبوعلو والمجاطي وغيرها من الأسماء التي أعقل منها هذه لسبب أجهله.

طلبت قهوة أخرى بسكر زائد كذلك، ورشفت، وبعد أن استقمت في الجلسة، وأحسست بي قد ملأت المكان تفكيرا وجسدا، تنبهت إلى لحيتي وشاربي الكث، وملابسي الهيب هوب، والقلائد الكثيرة التي تتدلى من رقبتي على صدري الذي يكاد يكون عريان، وكذا تلك التي تطوق معصميَّ الاثنين، من حديد وفضة وجلد وعقيق أسود وأحمر وأزرق، وخواتم في كل أصابعي باستثناء الخنصر ربما حفاظا على ذكرى زواجي من حبيبتي الأولى نهى التي لا أستطيع برغم جهدي المتواصل وفي خضم الإعجاب بهيئتي الجديدة أن أتذكر قبلتها الأولى، وضجعتها الأولى، وهمستها الأولى، وشهقتها الأولى بعد الممارسة الحميمية الأولى بأوزود. لا يقتصر الشعر الكث على الرأس والذقن، أدخلت يدي بين فخذي وتلمست عانتي، وجدتها كثة

كشوك القتاد، استخلصتها وشممتها فإذا بها رائحة كريهة استلطفت نكهتها المقرفة. على صدري قلائد في شكل دوائر تحمل بداخلها نجمات خماسية الماسوني وأخرى سداسية الأيام، كما أن هناك ثلاثا في شكل جماجم بأحجام مختلفة، الأولى لرجل لكبرها والثانية لامرأة لجمالها والثالثة لصبي لصغرها. عدا ذلك أنياب لحيوانات لا أعرف عنها شيئا، ولأعضاء صحراوية أو جنوب صحراوية مما يبيعه السينغاليون الوسيمون والسينيغاليات الفاتنات في أسواقنا الكاسدة حاليا، معلقة كلها إلى سلاسل فضية لامعة. أحسستني حفلا بهيجا يتوج فيه الهيبيون بالتجديد.

طلبت قهوة أخرى، واستدرت أبحث عن جلاسي من كتاب ومثقفين وشعراء، لم يبدُ لي واحد منهم، وعندما وضع النادل الحسين فنجاني الثاني بين يدي على الطاولة، قلت له أريد أن أسألك، فقاطعني قائلا:

- تبدلتي أأستاذ، مالك؟

- أواه، بصح؟

وضحكت مجلجلا، فشعر بالضيق واستدار ليغادر، فأمسكت به من معصمه، وقلت له:

- فين صحابي؟

- راهما حداك، مبانوش لك، حينت مبغيتيش تشوفهم.

تركت معصمه، وقلت في نفسي، ولكن لماذا لم يرحبوا بي؟ هل مظهري غيّرني إلى درجة أنكروني فيها، طيب لماذا عرفني النادل الحسين، ألأنه شلح عاقل؟

وضعت حدا لهواجسي، فغادرت المقهى، وتركت سيارتي حيث هي، لن يستطيع الحسين أن يخبر البوليس فيجرها الديبناج إلى المحجز البلدي. أعرف شهامته الشلحية جيدا.

قلت أتمشى قليلا، ربما أمكنني التجوال في المدينة من تعرف نفسي الجديدة، وتلمس التغيير فيها، والفخر بها نفسا طريفة كل الطرافة في عالم براق زاه بألوان الحضارة. تمشيت على الكورنيش، حيث الزحام على أشده، الزمن صباح مشرق عذب، لكن الحركة فيه دبت على غير العادة. اعتددت بنفسي كون الجميع يلتفت لينظرني أنا

الجديد المتحول كاملا، ولأني إنسان قابلت إعجابهم بالشكر علنا، فوزعت شكري ألفاظا وعبارات راقية مما أتذكره توا من كراسات قرأتها منها. بل إني أبالغ في رد التحية، فأنحني لمجموعة من الشباب يصافحونني، وأركع لنسوة جميلات يحيينني بأيديهن المصبوغة بالحناء التيزنيتية، وأقبل راحتي كفيّ معا وأبعث بقبلاتي في الهواء إلى صغار يلعبون في المساحات المخصصة للعب الأطفال على الكورنيش، ويقابلونها بضحكاتهم المسترسلة البريئة براءة القمصان.

قلت في نفسي، ما دمت قد حزت إعجاب الجميع لماذا لا أفعلها؟

تهندمت مهتزا في مكاني وأنا سائر الهوينى، وحشدت هواء نقيا زائدا عن حاجة رئتي لأقدر على البوح، ثم انتفضت أتخلص من بقايا الأستاذ فيّ، إذا كنت حقا كما قال النادل الحسين. ولجت عبر الممر النخيلي المشبك، وخرجت إلى فسحة الماء الذي ترسو فيه بواخر للسياحة وقوارب للصيد صغيرة، وقفت على حافة الفسحة، وطفقت أنظر في الأسماك تنقلب ظهرا على بطن قريبا من حيث

أقف، وأنا في الحقيقة لم أقف هناك لأنظر في الأسماك، فأنا لا أحبها إلا مقلية في الزيت، موضوعة على صحن العشاء. وقفت هناك لأقترب من امرأة سوسية ترتدي لحافا مزركشا بأنواع من الزهور المختلفة، تناسقها يسبغ جمالا أخاذا على اللحاف وصاحبته الممتلئة. على غير عادتي، استهوتني هذه المرأة المكتنزة لحما أبيض لا شك يكون لامعا، إذا لمسته سينبت الريحان عليه، فتثمر الأفخاذ والسيقان رمانا مشتهى، ويورق الصدر والبطن والظهر جلنارا وياسمينا وفلا.

اقتربت منها أكثر، فقالت:

- مرحبا أستاذ كريم، تبدو في حلة جديدة.

استغربت كيف تعرفني وأنا أراها لأول مرة. فقلت متعجبا:

- تعرفينني؟

- أنا نهى، يبدو أنك تنسى إناثك بسرعة.

- ولكن...

- أعلم أن العجب نفسه أخذك مني.

أومأت برأسي أن نعم.

- أنا أيضا تغيرت، أفقت هذا الصباح بعد كابوس ليلي لذيذ، فوجدتني امرأة سوسية في هذا اللحاف الذي لا أرتدي تحته غير حمالات صدري وتباني المشبك. وفرحت أن تخلصت من المرأة الأطلسية الجبانة التي كنتها قبيل نومتي.

- حقا؟

وضحكت بانفعال شديد. ثم أضافت.

- سمعت في التلفاز أن موجة التغير ستشمل عددا كبيرا من ناس الكوكب، ولكن الغريب حقا أن التحول بدأ في المغرب.

- ليس غريبا، نحن في المغرب.

أرادت أن تسترسل، ولكني التصقت بها، فنظرت إلي. قلت لها أن ندع أمر التحول جانبا، فهو ليس حدثا جديدا، وضربت لها مثلا مما تحفظه ذاكرة الأستاذ فيّ،

بقرة هرادي، وحمار أوريد، وحمير القبة، ومسخ كافكا... ثم لمزتني أن أصمت، وانحشرت فيّ، فشعرت بحرارة جسدها الممتلئ، وسقنا بعضنا متلاحمين على الرصيف، حتى بلغت بها مقهى سعادة الحسين.

فتحت لها باب السيارة، ورحبت بولوجها، وعندما استدرت لأركب في مقعدي، رفعت رأسي إلى المقهى، فرأيت أصحابي، أردت أن أحييهم بخلاف إنكارهم لي، لكنهم عاجلوني قائلين:

- أُترك الدجاجة لأهلها.

استويت في مقعدي، وقلت لهم وأنا أُخرج رأسي فقط من النافذة:

- ليست دجاجة أحد، إنها بومة تعيش في الغابة وحدها.

- ستفترسها إذن؟

- لست وحشا، أنا الأستاذ القارئ المقرئ.

وأدرت المحرك، وتراجعت إلى الخلف بلا انتباه فصدمت دراجة ثلاثية العجلات، وتماديت في السير،

فسمعت صاحبها يلعن الأساتذة جميعا، والقراءة التي قرأوها في المدارس. والتفت إلى بومتي، فوجدتها قد أخرجت مرآة قلبية، طفقت تعكر شفتيها بأحمر قانئ، وتزمهما، ثم تطبق بعضهما على بعض محدثة صوتا لذيذا. حينها استقام العفريت في صدري، ودست على دواسة السرعة أكثر.

ليلا نمت على السرير عاريا، إلى جانبي نهى بحمالاتها وتبانها المشبك.

من داخل جمجمتي رأيتني ملتصقا بها، انبهرت بجمال اللوحة البشرية، وغصت في النوم، عادت المطرقة الحديدية تدق على رأسي، ونهى إلى جانبي لا تحرك ساكنا، أحسست بإحباط منغص، وقلت في نفسي، حتى ونهى إلى جانبي تطرقني المطرقة اللعينة، وابتعدت عني مسافة، ربما كسرت لحظة الهجوم المتكرر هذه. ونجحت فعلا، فتحت عيني، فوجدت المطرقة إلى جانبي في السرير، وعلى مشجب الملابس بومة رمادية تنظر إلي في عريي.

هذا الخارج مني

هذه المدينة تأكل من رأسي كأنها الطير...

- "واأستاذ، وما لك ساهي؟"

التفتت أنظر إليه، ولم أجبه، حتى عيني كلت، فلم تتفوه بكلمة، ولم تنبثق على شفتي أي كلمات يمكنها أن تترجم ضعفي، فتنوب عني في الرد عليه. ولكن لماذا ينبغي أن أرد عليه؟ فليقل كلامه، وليمضِ.

مضى قدامي بعد أن يئس من السؤال، كرره مرات، وأشار بيده إليّ، وكأنه يلوح لرجل فقد وعيه ليتأكد أنه لا يزال في هذا العالم البئيس. سار قدامي، يجر ذيله، أقصد ذيله الحقيقية، وليس ذيل الثعلب الذي يظهر ويختفي عند زفزاف. التفت إلي يستنكر أن ألاحقه بنظراتي تلك، ويثور في وجه الخيال الذي جعل منه حيوانا لا يربض في أي

ركن، ولكن يسير أمامي، ومن سوء حظه أن جعل له خيالي ذاك ذيلا، ذيلا طويلة، ملتوية من طرف نهايتها، تتلوى على سطح الممر الحديدي، ويسير هذا أمامي، ويجرها إليه، مبديا قدرة عجيبة على إظهار عدم التحكم فيها، من غير تلك اللوية التي عقدها لذيله في نهايتها. كان يجرها مرتخية، لو كانت الأرضية ملطخة بالدم، أو موحلة لارتسم عليها خط طويل مستقيم غير متقطع. ولأمكنني أنا الواهن الذي ألاحقه من غير أن أدري لماذا، السير عليها، والحرص كلَّ الحرص على عدم تجاوزه عرضا قيد أنملة.

أسقطت من فكري صورة حيوانيته، فالتزم السير قدامي، من دون أن يشهر فيّ عينيه اللبؤتين.

ولكن خيالي لم يسعفني في التخلص من بيئة السائر أمامي، لست أدري أي شيء يربط بيننا. في أحيان أحس أن لي كيانا مستقلا عنه، فقبل أن أقوم من مجلسي، كنا واحدا، وهنيهة بعد الوقوف، انسلخ مني هذا، وسار أمامي، ولم يتخلف عني. هل يقودني أنا الضال في مدينة البيضاء المشرقة؟ هل يربطني إليه بسلسلة ذرعها سبعون ذراعا، لا ترى، ولا تحس؟ هل يسحرني بقانون لم يرد في منطق

أرسطو العظيم؟ هل ولدت نسخة مني، فاستحالت ظلا ظليلا، يرافق سيري، وتحولي، وتنقلي، وحياتي، ولعل موتي أيضا؟

ما يهمني أن ما طرحته من أسئلة لا تهمني. وهذا أيضا من غرائب الأمور التي تقع لي في الآونة الأخيرة.

منذ دخلت المدينة على حين غفلة من أصدقائي، وهذه الطيور تأكل من رأسي، وكلما فعلت انبثق مني هذا السائر، ولا يلتفت إليه إلا إذا أعملت الخيال فيه، أو في نفسي الكئيبة. وإذا حدث ونسيته، استقمت رجلا محترما، ببذلة سوداء وربطة عنق ذهبية الخطوط. عجزت في مرات متعددات أن أجد نوع الرابط بين الطيور وهذا المسخ، أو لأقل هذه "الأنا"، ولم أظفر بجواب.

ويحدث أن أدمن الاتصالات الهاتفية بنهى، أهاتفها قبل الذهاب إلى العمل، وأسرق بعض الدقائق بين فترات الاستراحة لأكلمها، ثم أغادر إلى الغرفة. وفي الطريق لا أنسى أبدا أن أستخلص هاتفي، وأضغط على أزرار الأرقام، فأمرر الاتصال، من دون أن أبحث عن اسمها في

لائحة الناطقين هاتفيا من الجهة الأخرى من العالم إلي. في تلك اللحظات بالذات تبتعد تلك الطيور عني، ولا يخرج مني شيء ألبتة.

وحدث أن كلمتها اليوم صباحا، عندما كنت على متن القطار نفسه الذي أقله الآن، لكي أذهب إلى عملي بعيدا عن المدينة. وشعرت أن في كلماتها ما ينبئ بفراسة، فقد نبهتني إلى العودة إلى نفسي، وعدم ملاحقة ذلك الحلم الذي أراه في نومي وصحوي، وبتعبيري ذلك الظل الذي يخرج مني. استغربت أول الأمر، كيف تعرف نهى عني هذه الأشياء؟ وأنا متأكد ألا أحد من الناس يشاهد ذلك الشيء أمامي، فمعظم النساء يبتسمن لي من دونه، ويردن تحيتي من دونه، بل وأرمق بعضهن من طرف خفي، وهن يلقين نظرة استكشاف عليّ. حينها أعرف أن هذه "الأنا" تظلمني وحدي، ووحدي فقط. كيف عرفت نهى بوجودها؟

أردت أن أصرخ في وجهها، فأتهمها بأن المخلوق الذي يلاحقني من صنعها هي، وأنه لا وجود له إلا من خلال مخيلتها التي تتعقبني بها حيثما حللت وارتحلت، وأن حكايته وهم صدقته فبات حقيقة في خيالي. لكني تراجعت

عن مطارحة الموضوع معها، فهي في نهاية المطاف، مصدر سعادتي، ومنبع شقاوتي معا، ويا لفظاعة أن يلتئم المتفارقان، ويعسر حلهما على فيلسوف اللغة برتراندل راسل البهيج.

عزمت أن أترك المدينة تأكل من رأسي، وأن أطرد هذا الشخص من خيالي، أقصد من حياتي. أما الطيور التي تأكل من رأسي كالمدينة، فسوف أحدثكم عنها في يوم من الأيام.

أنا... النائم المتنبه

تنبهت من نومي نائما، ولم أستطع أن أزيح عني فراشي الذي تدثرت به طوال ليلة باردة قارصة، الشتاء في المدينة لا طعم له، كأنه الذوق في تشكله الأولي، لا طعم له. وبرغم ذلك، انتفضت في مكاني، ينبغي أن أفيق فاليومُ أتعابه لا تنتهي، بل هي مستعدة دوما لتأتي بالجديد الذي لا يتوقع.

بعجالة تناولت فطوري الذي بات من ليلة أمس، لا أحب أن أطهو صباحا عندما أفيق من نومي متعبا، كأني لم أنم، أو كأن جانا بات غاطا على جسدي، لينهك فيّ قوة الشباب، ويسلب مني اندفاعته. تركت المواعين على المائدة، وارتديت من الملابس أثقلها، لأحمي الجسد الذي لا يحبني، وأقيَه من شر الزمهرير.

فتحت الباب نائما، ولفحني برد شديد، كدت أعيد غلقه، وأعود أدراجي إلى غرفة نومي الدافئة، التي تركتها

من دون أن أرتب الفراش فوقها، وأنضدها. تلك عملية تثير أعصابي، وتقض راحتي النفسية، وتكلفني من الزمن الكثير، بالإضافة إلى أنها روتينية تهدد نومي دائما بالصحو الذي لا أتقنه. خمنت قليلا، وأنا أتلقى أولى لمسات البرد على وجنتي. في خضم ذلك، تذكرت أني لم أحلق ذقني هذا الصباح على غير العادة طبعا، الماء يصيبني بالانتباه الذي أكرهه، أفضل في كل الحالات أن أبدو صاحيا نائما.

وضعت حدا لكل الهواجس التي تنامت بداخلي، وأصررت على مجابهة الخارج، ومنازلة الصحو. اليوم لي موعد معها، على شرفة الجسر المعلق بالمدينة. نعم، سيكون البرد هناك شديدا أكثر من أي مكان آخر في المدينة، ولكن لا بأس. في لحظات البوح الحبي أريد أن أصحو قليلا برغم ثقل النوم على أجفاني. نهى سوف تنتظرني، أو ربما أسبقها إلى هناك، فهي لن تأتي مترجلة؛ إذ إنها لا تحب التمشي خاصة في أيام ديسمبر الأخيرة. تقول لي دائما بأن أفضل شهورها الخريف الممتقع، وأيامه الأولى منه، تلك الأيام التي تبدو كسلانة كأنها تفيق من نومها بعد شهر الصيف الطويل. ليس في نظرها شهر

أطول من الصيف، لذلك تسميه شهورا بصيغة الجمع غير المتكرر. أما أنا فأحب أن أمشي الهوينى غير متعجل، لذلك خرجت هذا الصباح النائم قبل موعدي بساعة، ستكون كافية لأصل إلى الجسر قبلها، وأرتب كلماتي التي سأقولها، وأرجو ألا تكون نائمة هي أيضا، فتفضح كسلي، وأنا العالم بأن نهى لا تحب الكلمات الكسلى، بل تستلطف مني الكلمات المتدفقة العجولة التي تترجم بصدق أحاسيس القلب الذي لا يفيق في صدري.

قالت لي مرة، وهي مرمية في حضني في غرفة نومي ببيتي الذي يصمت فيه كل شيء: "أحبك عندما تثور فيّ كأنك حصان صلب صلد".

لم أجبها حينها، بل حضنتها بقوة، وأريتها كيف يكون الحصان في غرفة النوم عندما يختلي بفرس في إقدام نهى وشبقها البارز على جسدها، الدافق من روحها عبر عينيها. لكني مع ذلك، بقيت في المرات التي أصحو فيها جيدا أفكر في كلماتها، وأزنها بميزان العقل الذي لا أملكه، وأيقنت أنها لم تكن تقصد ما قالت، ربما قالت ذلك لتحفزني على العطاء المستمر، فهي تقاسمني هوسي بالنوم، وتعلم أني لا أتنبه

أبدا، برغم أنني أكون في ساعات كثيرة واقفا أتمشى أو جالسا أنصت إلى نفسي، أو منهمكا في القيام بعمل من الأعمال التي لا أنهيها أبدا. تعلم ذلك جيدا، وذلك ما يجعلني أتعلق بها أكثر من أي امرأة أخرى في هذه المدينة الكسول.

خرجت، وتركت الباب بلا إغلاق محكم، كم أملك في البيت اللعين من أثاث أو مال أو أشياء ذات قيمة، إذا عددتها لن أجدها تساوي أكثر من قيمة تذكرة سفر إلى هاواي. إذا لم تساو ذلك حقا، فلا داعي لأن أغلق الباب خلف تلك الأمتعة الحقيرة. أنا الآن أفكر برغم إغراقي في النوم، إنه يباغتني في لحظات انتباهي المعدودات، قلت بأنني أفكر في السبب الذي يجعل محبا يواعد فتاته في يوم مكفهر كهذا. وطبعا لم أجده، لأن النوم يغلبني فلا أتبين الأسباب حقيقة، ولا علات الأشياء واضحة. يوم ممطروباردكهذا، تبدو المدينة فيه غارقة في السبات الشتوي، وتبدو لي الدببة فيها بفرائها الثمينة تسير ببطء ولا تنام، حركة في كل اتجاه، وغمغمات لا تكاد تبين. ما الذي يحمل عاشقا على أن يعقد لقاء على جسر حديدية باردة كل البرودة في صباح كسلان؟ الأصباح لا تصلح للحب، لماذا لم يكن مساء ربيعيا مشمسا،

أو ظهيرة صيف قائظة، أو خلوة خريفية كتلك التي تحبها نُهايَ؟

تركت الباب كما قلت، وتمشيت ببطء، ببطء شديد، يداي في جيبي معطفي، ورأسي يكاد يغيب بين كتفي، أغطيه بقلنسوة صوفية، ومن قبل غطيت على أذني لكيلا تتجمدا من البرد، فهما العضو الذي يتعرض مباشرة للبرد، فيقصفه عموديا، والفراغ الذي يحيط بهما يترك فرصة ثمينة له من أجل النيل منهما. لذلك، وتحسبا لكل هذا، غطيتهما جيدا، ولا يهمني أن أصيخ السمع، لا شيء يهم مما تنطق به الدببة في هذه المدينة النائمة. يهمني الآن أن أسمع إلى قلبي في دقاته البطيئة كخطوي، وأترجم ما يود قوله، تعبيرات مبهمة عن اللقاء، واستعدادات نوتية للبوح. أرجو ألا يخذلني عند الجسر فيسكت إلى الأبد، أو يشعر بالبرد القارص فتخرج الكلمات من فمي مرتعدة تقصقص. ما الذي ستقوله نهى عني حينها؟ لا شك ترميني بالضعف، والنوم، وقلة المسؤولية بإزائها، فأنا أعرف، من تجارب سابقات لم أخبر بها نهى طبعا، أن المرأة في موقفها مع

الرجل تبحث عن المسؤولية قبل الشغف الجسدي، وتبحث أيضا عن الصحو.

لم أقطع مسافة كبيرة، غير أن ما أفكر به برغم اندغامه في الأحلام والكوابيس القاضة، جعلني أحس أن المسافة التي قطعتها كبيرة تتعدى كيلومترات مديدة، رفعت رأسي وأنا نائم حاسّ بتعب شديد، وطفقت أقلبه في الأرجاء، لا زلت في شارعي، ولم أبرح محطة الطاكسيات بعد. الجسر بعيدة من هنا، يجب أن أسرع قليلا، قد تسبقني امرأتي وتغضب مني إذا تأخرت عن الموعد الذي حددته وإياها قبل أسبوع من اليوم. وإذا غضبت ضاعت مني إلى الأبد، وأنا لا أكاد أصحو لأبحث عن نهى أخرى قد لا تفهم أشياء كثيرة في حياتي، لعل أبرزها على الإطلاق الحياة نائما. نهى لا تحب أن أتأخر عن موعدي معها، لذلك لا بد أن أسرع. توقفت عن التأمل الداخلي والخارجي، وأخرجت يدي من جيبي، ورفعت هامتي قليلا، وتركت أذنيّ مغطاتين، وشمرت عن ساقيّ. أسرعت، فهرولت، ثم جريت، وفي دقائق معدودات وجدتني ألهث على الجسر التي تقسم المدينة شطرين غير متكافئين.

سيارات قليلة تعبرها، وأناس غائمو الملامح يمرون عليها، غير عابئين بي. أنا الواقف وحيدا عليها، أرتفقها لا أخشى أن تبرد مرافقي. رميت ببصري في اتجاه النهر المتدفق في صمت بارد، ورأيت مراكب قليلة تتفيأ ضفافه المتحركة، أشجار السرو التي تمتد على الجنبات ندية صامتة، وكأن بعضها ينظر في بعض، فتتبادل اللوم على استنباتها في الهامش من المدينة. كنت دافئا بفعل الحركة، ورويدا بدأت حرارتي تخفت، لن أخاف من التجمد، طبعا، فقدوم نهى سوف يزيد من حرارة جسدي.

انتظرت طويلا كما ينتظر الفِطرَ صائمٌ، وكما ينتظر الليلَ ساهرٌ، وكما... هل ستأتي نهاي أم إنها أخطأت الطريق، أو نسيت الموعد. فكرت نائما تجذبني الأحلام على الجسر الرخوة، لماذا ستكلف المرأة نفسها عناء الخروج لموعد شتائي لن يكون فيه تعر ولا تقبيل على الشفتين؟ لماذا ستخرج في ملابس ثقيلة، تشل حركتها، فلا ترفع ذراعيها لتستقبل الحياة، ولا لتعانق العاشق على الجسر، فتمتلئ به صدرا؟ هل من الجنون أن تبحث المرأة عن الحب البارد، تحت سماء ضبابية داكنة؟ لن تستطيع أن

ترى وجه عشيقها، ولا تمييز ملامحه، فتكشف صدقه أو زيف أقواله. إذن لماذا ستتعب نفسها فتقل سيارتها الجديدة، وتمر بها بين الحفر التي تملأ الشوارع فتتسخ وتستحيل خردة منفرة، من أجل رجل لا يفيق، ولا يعرف البرزخ الحاجز بين النوم واليقظة؟ هل فَنِيَ الرجال من المدينة، ولم يبق غيري؟ لماذا إذن ستأتي نهى لتلاقيني على الجسر الباردة في الصبيحة الباردة من يوم شتوي ممطر؟ لو كان يوما خريفيا لامعا لأتت، إني أعرفها رغم غلبة النوم على أفكاري، فهي تحب الخريف، وأيامه، ورجاله. وأنا واحد من مواليد برج النوم. لن يحبني غير امرأة الأحلام المندثرة.

أنا... ووحوش المدينة

لا يمكن لهذا الأمر أن يحدث، وإذا حدث فأنا حتما ميت، أو في حلم كابوسي يخنق الأنفاس طوال الليل، وهو ليل ممتد طويل، لا يريد أن ينتهي. في كل أركان المدينة وحوش حقيقية، كما في الغابة تماما، وحوش من كل الأنواع التي نعرفها، والتي رأيناها على شاشاتنا التلفزية عندما كنا لا نزال نعيش في المدينة الخالية من الوحوش، المليئة بالبشر، البشر الآلفين فقط. نعمل، ونخرج، ونصادف أنصافنا، ونتزوج، ونتزاوج، فنكثر، وندخل البيوت، ثم نخرج، ونكبر، ونتجول، ونرمي بعضنا بكلمات نابية، ثم نموت. لم أمت بعد، الوحوش في كل مكان: سباع ولبؤات، فهود ونمور، فيَلة وزرافات، كلاب برية وضباع، غزلان وأيائل، طيور ونسور، خنازير وثعالب، دببة

ووحيدو القرن، كل الحيوانات بلا استثناء، تجوب المدينة، وتفرض سيطرتها عليها.

فقدنا - نحن البشرَ - السيطرة عليها، فتحولنا إلى مطارَدين، نفرّ من ركن إلى ركن، ومن زاوية إلى أخرى، والحيوانات في تعقبنا المستمر. ما يؤسف له أن ذلك حدث مباشرة بعد خروجنا من الحجر الصحي الذي فرضته كورونا زمنا علينا، بعضنا لا يزال يضع قناعات على فمه وأنفه، خشية أن يتشرب الوباء، فيعاني من مضاعفاته ويموت، كما كنا نموت قبل ظهور الوباء، وبعدما تفشت الغابة في المدينة. أستغرب من الحيوانات العاشبة التي لم تعد تطارَد، إنها تأكل من القمامات، وأشجار الحدائق، وأعشاب جنبات الطرقات الفارغة، إلا من حيوانات مفترسة تترقب المنفلتين من البشر. تبدو في الشوارع، وقريبا من أبواب المنازل بعض الهياكل العظمية لأناس أُكلوا حيث بقيت هياكلهم. لم يستطع أحد أن يحميهم، ولا أن يحمل هياكلهم فيدفنها كما كنا نفعل قبل الوباء وقبل تفشي الحيوانات في مدينتنا.

أنا أجول في المدينة ولا يراني أي واحد من الحيوانات، ربما أكون أو لا أكون، وربما مت من قبل، فتحولت إلى شبح أمر من هنا وهناك، وأنوجد في أكثر من مكان واحد في الزمن نفسه، تعالقت قوانين الفيزياء في أعطافي، وتبدى لي الفضاء من حولي هلاميا، لا شيء فيه حقيقي غير هذه الحيوانات التي تفترس الناس أحياء، قبل أن يهلكوا. لا بد أن يكون الأمر حلما، أو لعبة من لعب الفضاء الرقمي التي غزت حياتنا قبل أن تغزوها الحيوانات، وحملت الفتيان على الانتحار، وعلى قتل أهلهم، أو أصدقائهم تحقيقا لرغبة لاعب مفتعل من العالم الافتراضي.

مرت أسابيع طويلة، فازداد تفشي سطوة الحيوانات، وتقلص حضور الناس. تساءلت أكثر من مرة، وأنا أحاول أن أجر من تحت أقدام لبؤة فتاة تلتهمها، بعدما خنقتها بسحق حنجرتها الرطبة، أحاول من دون جدوى، تحت نظراتها المتعبة المتوسلة إلى ظلي. كنت أتساءل عن سر هذا الاجتياح، وانقراض آليات البشر الحربية، وعتادهم المتطور، من دبابات وحاملات طائرات، وقاذفات، وبنادق، ورشاشات، ومسدسات، وخناجر، وقنابل تنفجر بمجرد

سحب المكابس. أين اختفت هذه الأشياء؟ هل ابتلعتها الحيوانات بمجرد ما غزت المدينة؟ هل اختفت قبل ليلة الغزو؟ هل تخلص منها الناس قبل الغزو وهم يحلمون بغد إنساني مشرق؟ أم وهم عازمون على أن يعيشوا حقا في الأمن والسلام، فيكفوا عن قتل بني جنسهم، ويعملوا حقا على رعاية حقوق الناس، وحمايتهم من طغيان قوانينهم السخيفة؟ هل فكروا في هذا الأمر ثم دوهموا من قبل الحيوانات، فمزقت أحلامهم البئيسة، ووضعت حدا لتوجساهم الطيبة في زمن ما بعد كورونا؟

لا يعقل مثل هذا، لا يعقل. ينبغي للإنسان أن يترك على طبيعته فيفكر في بني جنسه، والحيوانات التي غزت يجب أن تراجع قرارها السخيف، وتنسحب من المدينة من دون قيد ولا شرط، وإذا لم يحدث ذلك فإن على القوة القاهرة أن تتدخل على الفور لتنهي هذه المأساة. لم أعد أستطيع أن أتتبع تحركات هذه الحيوانات في أرجاء المدينة، فأصف ما تقترفه آلتها العظمية من مجازر في حق بني جلدتي. إنني أشعر بالهوان على نفسي وعليهم جميعا. ثم لماذا لا يقبعون في دورهم كما فعلوا في زمن الحجر

الصحي، وانقطعوا عن الحياة كلها، ولم يحدث لهم شيء عدا بعض الانتحارات في صفوف المتأزمين نفسيا، لماذا لا يقبعون بها، فينعمون بالراحة والسكينة ولذة انتظار الغد الذي سيأتي بالجديد الذي لن يتوقعوه أبدا أبدا؟ حتى موتاهم حينها دفنوا من دون جنازات، حملوا في سيارات الإسعاف، وسرت على الطرقات لا تصوت ولا تزعق، لأنه لم يكن هناك من أحد لتزعق له، فدفنوا بحضور نزرٍ، كما وزن الريشة، ولم يقرأ عليهم القرآن، ولم يكن هناك بالمقابر فقهاء يستجدون ذوي الميت لينعموا عليهم ببعض الدراهم. ربما يكون هذا الزمن لبني البشر أقسى عليهم من زمن الكورونا، من يدري. فها أنا كلما صادفت حيوانا مفترسا، إلا وآثار الدماء على وجهه، بل تسيل من بين أشداقه المرتخية. حتى إذا تعبت من الافتراس، استلقت على الإسفلت، أو تحت أعمدة الكهرباء، وشرعت في لعق جلدها، وأظفارها الحادة. أقف إليها، والسؤال العظيم لا يكف عن الاستقامة في دماغي الذي لم يعد يستطيع التمييز بين الواقع والخيال، أقول ما الذي يجعل البشر برغم معرفتهم أن المدينة غزتها الحيوانات المفترسة يخرجون، ويصرون على التنقل بين بيوتهم ومحلات مرجان وأسواق

السلام وقيساريات الملابس؟ هل هذه الحياة أهم من أن يبقوا أحياء على قيد الحياة؟ أيها الإنسان المارق من نفسه، عد إلى نفسك، واخشَ الحيوان، فأنت حقا لا تعلم قدرته على الفتك، وعلى القتل.

لا أحد يسمعني، مطلقا. وأنا أسير في المدينة على غير هدى، تسندني زرافة متطلعة إلى سطوح البيوت، وفهد يتسلق عمود كهرباء، وبين قدميه يجر جثة رجل خمسيني، مضرجا في دمائه، وهناك لبؤات في الزقاق الجانبي تحاصر شلة من المتسوقين العائدين للتو من محل لبيع المواد الغذائية، وفي ركن الشارع كلاب برية تمزق امرأة ثخينة، وتحت سيارة الإسعاف الواقفة ضباع تنهش لحما طريا. وأنا... أكاد أجن، لأني أمر، ولا يراني أحد، لا واحد من الحيوانات ولا البشر.

أنا...واللوحة

في الرواق وحدي، أعيد حياة الحلم الأولى، طفولة البذخ الفني وثراء الأفق الممتد خطا أحمر لامعا. كان الرسم معلمتي الواضحة، والريشة حلمي الذي أكتب به مشاعري الصغيرة، وأحلامي التي تتّقد بين جوانحي. الألوان أحسن اختيارها من المتعدد حولي، فالطبيعة منبع لا ينفذ، وعيناي تلمسان الجمال حيث تسقطان، فتحفظ ذاكرتي اللوحات لوحة لوحة، كل مشهد يمتاز عن غيره بتفاصيله المربكة، التي تشكل منعرجاته. عندما أحمل الريشة يسقط منها الحب شجرا وارفا، والعاطفة الجياشة امرأة عارية في غلالة سوداء، تنمو تضاريسها المغرية على جنباتها، فتزداد حيرتي إزاءها، ويكبر هوسي نحو وجودها الفني.

كم كان معلمي رجلا ذواقة، يكتب الشعر ويغني للطفولة، وكم كانت اللوحات في بيته مصدرا للمحاكاة الأولى، وطريقا للخطوة الأولى، ثم انبثق العشق في خضم

الفقر في كل شيء، ونما الحب بين أوراق السدر الخضراء، فكبرتُ وكبر الفن صنوا. وهذه اللوحات تنير الرواق بأشعة من الألوان، كأنها الطاووس حيث لا حديقة، وكأنها قوس قزح حيث لا ماء ولا شاهق، وكأنها الشمس الرطيبة تسحر أعين الناظرين ساعة الغروب. كبرتُ وتحول الرواق من حولي سردابا يخنق أحلامي ويترجم المكبوت منها فيّ منذ عقود.

أنا على مسافة من لوحتي.

واللوحة هامش مهم في حياتي.

كبرتُ ولم تكبر اللوحة، وصغرتُ حقيرا، وفضلتِ اللوحة وهجا لا ينطفئ أبدا.

ـ كريم.. أتمم لوحتك!

يقول معلمي، وهو ينظر إلى أصابعي الصغيرة تسافر برشاقة على القماش الأبيض مثبتا إلى دعامة خشبية من ثلاث ركائز.

ألتفت إليه، وأقول:

ـ لا بأس أن يفوتني درس اليوم؟

ـ أنت ذكي، أراجعه معك عندما تنتهي.

وأحمل نفسي أمام القماش طيرا بريش زاهٍ، أصبغ من ريشي في هذا الموضع من البياض، ثم أقفز إلى موضع آخر فأصبغ فيه من لون آخر، وأسقط ريشي ريشة ريشة، فيمّحي البياض لمسة لمسة، وينجلي عن الزهو كما في الريش تماما.

ـ أحسنت، ها اللوحة شارفت على الانتهاء.

أشكره بعيني الدامعة، ولست أدري كيف يصير قلبي هشا رقيقا عندما أتمّ لوحة، فأذرف الدموع كأمّ ثكلى، أو كأبٍ يشيع ابنه على سكة القطار جسدا ممزقا.

ـ تنقصني لمسات هنا، وينبغي أن أخفف الأزرق هنا، وأحفر عميقا حتى يبدو المنظر غائرا.

ـ أحسنت، أحسنت.

لم أفكر يوما أن اللوحات سوف تحيط بي في رواق يمتد منعرجا، وأنها سوف تؤثث صمته التاريخي العابق،

وستجاور مصابيح تلمع على الجدران الداخلية وكأنها تمنحها ضياء زائدا لعلها تعبّر أكثر مما ينبغي لها أو تصرخ أكثر من اللازم، لأن العابرين لا يحسنون السمع، والمدعوين لا يحبون بأعينهم. كم مرَّ مِن هنا من خيل دكت الأرض في الحرب، وكم رفعت أعلام الفرح هنا تعلن زفاف الجمال أو ختان الذكور التي ليست كالإناث. كم وكم... وها لوحاتي تملأ الفراغ قرونا بعد ذلك كثيرا. وأنا أسير مطبقا في صمت الفن، وحشرجة الحلم المحتضر.

معلمي.. أينك لترفعني عن الأرض اليباب، فأنا السماء التي لا تنطبق على الأرض مطلقا، وأنت الحالم الحامل الحاكي فرح الوجد، ووهج الألق الدفين.

يومَ السوق، أرفع ركائز أخرى، وأترك ركائز اللوحة في بيت المعلم، والقماش عليها، يحف به صمت الكتب تؤثث فضاءه، وصمت العزوبة المبهجة. وهذه الركائز ستة ترفع قماشا أبيض من حجم كبير،تظلل بضائع يعرضها أبي للبيع في سوق نافقة غير رابحة، وأنا أصفف البضاعة وأتعهدها بالتنظيف والترتيب، علّ اليوم يأتي بسعد. وعندما يتفرق الجمع أفكر في لوحتي ببيت المعلم.

وأستعجل الصباح الموالي.

وحصة العربية.

ـ ستتم ما انتقص من لوحتك؟

ـ نعم، أفعل اليوم.

ـ هنيئا لك. أنت فنان.

ولا زلت فنانا، أرسم الألمَ سرورا، والظلمَ عدلا، والانكسارَ توثبا، ثم أعرض لوحاتي على العابرين في رواق الحياة. وأقول لهم:

ـ التفتوا.. أنصتوا إلى المعلم يبهجنا..

وأنا لا أزال في الرواق، أحلم أن أعود صغيرا يضعني المعلم ورقة ذابلة تحفظ صفحة الكتاب الذي يقرأه، أو وردة حية في إناء ماء يضعه على طاولة أمام خزانته المحفوفة كتبا.

إذا مات...وإذا مات أصير روحا يهيم في ملكوته، وأقول فيه شعرا عن الحب والحياة واللوحة الأخيرة.

ـ هذي لوحتك الأخيرة، ها أنت قد أتممتها.

ـ لا أريدها أن تكون الأخيرة، أنا لا أملّ من الرسم.

وتركني، ثم مضى، والتفت وقد وضع على عينيه نظارات سوداء.

ـ لماذا تمنع نور عينيك عني؟

ـ لأنك كبرت، ولم تعد طفلا.

ـ أحتاجك.

ـ عد إلى الفنان فيك، وسوف تجدني قريبا، أسمع منك وأرى منه.

ـ المسافة بعيدة، والحياة تنآى بك عني.

ـ أُكتبني إذا فشلتَ في الرسم.

ـ لن أفشل، الرسم حياة.

ـ والكتابة أيضا، ستذكر هذا إذا كبرت.

وكبرت، وتذكرته، وأحسسته كائنا من ورق ينمو بداخلي، هل أنا الأم الحامل به؟ أم أنا الناسخ المنسوخ المتحول المحلول فيه؟

وعدت إلى الرواق، تحفني الحياة أنا واللوحة.

أنا... والملك

أراقب المَلك من كثب، أكون أقرب إليه من ظل عمامته المتضخم على رخام القصر حيث ينام، ويأكل، ويشرب، ويحكم بين الناس بما يراه حقا. هو عادل لا يظلم عنده أحد من الرعية، حتى إن رعية البلدان المجاورة وما أكثرها، تلتمس العدل عنده، إذا أجبرت على الظلم في بلدانها أو حكم بجور في قضية من القضايا التي يختلف بشأنها الناس هناك أو هنا في ذي المملكة السعيدة.

- أيها الملك جئناك فارين من ظلم حاكمنا القاسي.

ألف الملك سماع هذا الخطاب، وكلما مثل بين يديه فريق من المظلومين، استمع إليهم، وقبل أن ينصفهم، يستضيفهم في الغرف التي تحيط بحدائق القصر أياما سبعة، بعد تمامها بالكمال، يستدعيهم، ويستمع إليهم من جديد. إذا

كانت المظلمة خلافا بسيطا حول أمر من أمور الدنيا تافه، حله في الحين، وأسبغ على المظلومين كنفه وعطفه، فيعودوا من فورهم إلى بلداتهم مبتهجين، حتى إنه في أحايين كثيرة يحضر الظالم والمظلوم، ويفصل بينهما بالحق تاما. ومن فضل الملك على الناس أن الظالم يأتيه وهو لا يخاف عقوبة من أي نوع، لأن الملك لا يترك الظالم يغادر الغرف حتى يتوب عن ظلمه، طواعية ومن غير إجبار. إذا استعصى عليه ذلك، أمر كبير القضاة أن يخصص للظالم معلما يعلمه الحق وأصوله. وأما المظلوم فيغادر من فوره، وهو يدعو للملك بطول العمر والغلبة على ملوك العالم كلهم.

مشكلة الملك الذي أراقبه من كثب، وأنا أقرب إليه من رفة جفون عينيه، أنه يرغب في حكم العالم كله، ينشغل كل يوم بكيفية غزو العالم من دون أن يسفح دما أو يأخذ شيئا لا يحق له. احتار في الأمر، ولم يجد من يمحضه النصح. هو ملك لا يحيط به من الحجاب والوزراء والقضاة إلا عدد قليل، إيمانا منه أن الفتنة في البطانة إذا كثرت،

وفي الحسد يدب بين رجالاتها، فتعمى بصائرهم، وتكل عقولهم عن سداد الرأي، وحصافة النظر.

ليلته الماضية في قمرة القصر، بين أثوابه المنسدلة من كل جانب، لم ينم، أرق أرقا متعبا، وفي غبش الضوء النافذ من فتحة على الجدار، قال لي:

- كريم.. تعلم أني لا أكلمك إلا إذا اختلط عليّ الأمر. ما رأيك؟

ابتعدت منه مسافة، لأوقن أن من أمامي يستنصحني ملك عادل لا تساوره الدنايا. وقلت:

- عبدك الضعيف ليس يملك من رجاحة العقل غير ما يسدد خطاه في حضرة جلالتك.
- متواضع كعادتك.
- الرأي رأيك.
- رأيي أنت مطلع عليه، تعرف مبتدأه ولكن يغيب عنك منتهاه.
- لن يخذلك الله مادمت في عدل، وما دمت في حل من الجور.
- أليس ما أقدم عليه جورا وتعديا على حقوق الغير؟

- إنك لا تغزو لتنشر الطغيان، أنت تفتح لتصيب بسلطانك الناس وحكامهم بفضل، وينعموا بما تتنعم به رعيتك في ممكلتك السعيدة.
- لن يفهم الناس هذا.
- ألا يأتونك بحثا عن الحق الذي يفتقدونه في مدنهم وقراهم؟
- بلى.. بلى.
- وإذن..
- طيب. اتركني أفكر في الأمر مليا.

وتركته، وأنا أفكر.

وتركني ليفكر.

أغلق على نفسه أبواب القصر، ومنع استقبال أحد، حتى نسوته الكثيرات لم يسمح لواحدة بالدخول عليه. لم يحدث قط أن منعهن عنه، لذلك فإني أرى أن الموقف الذي يتواجد فيه الملك لا يحسد عليه. جاءتني صغرى النسوة، وطرقت غرفتي، ولم تمهلني حتى أفتح الباب، ودخلت مستعجلة.

- أخبرني، ما الذي دهى الملك؟

- لا يجدر بك الدخول علي بلا إذن.
- أستميحك عذرا، لكن تأخره عني قض مضجعي.

قالت ذلك وهي تلهث، تكاد يغمى عليها، فأشفقت عليها، وقلت لها أن تجلس لتسترد أنفاسها.

- سأخبرك، اجلسي أولا.

وجلست، وطفقت تطرطق أصابعها في عصبية حادة، وهي تنظر إلي، ولا تكاد تتنفس.

- هيه، قل، ما الذي أصاب مليكي؟
- لا تقلقي، ليس في الأمر مكروه.
- طمني إذن.

وقفت، واستدرت إلى النافذة التي تعلو الغرفة، ونظرت عبرها فامتد بساط السماء الأزرق قبالتي، وقلت لها بأن الملك طموح، ونظره يسرح بعيدا، يرى بأن السماء واسعة، والأرض أيضا.

توقفت، وأحسست بها من خلفي، تنظر من النافذة نفسها، ارتدت إلى جانبي، وقالت:

- أفصح، لا أفهمك.

استدرت إليها، فوجدتني قبالتها مباشرة، أردت أن أقبض عليها من رمانتي كتفيها، لكني خشيت سطوة الملك، ونظرت في عينيها الزرقاوين وقلت لها:

- يرغب الملك في غزو العالم.
- ماذا؟ الحرب مرة أخرى.
- نعم، لا شيء سيصده عنها.
- علمت أن الأمر جلل.
- أغلق على نفسه، ولم يسمح لأي واحد بالاقتراب من إيوانه، حتى أنا يا زمردة.
- حتى أنت؟ حتى أنت؟ وماذا عني؟
- بل قولي ماذا عن النسوة جميعهن؟ لم يستقبل أي واحدة منهن.
- أحقا ما تقول؟
- نعم، سيدتي.

انقلب التجهم على وجهها تبسما، وضربت بجناحي فستانها على ساقيها بقوة، واستدارت، ثم خرجت. وظللت أرقب السماء من فتحة النافذة، قلت في نفسي سيغزو الملك العالم لا شك.

وانفتحت أبواب القصر بعد أيام سبعة، وعدت أرقب الملك من كثب كأني وريده. وهَلَّ في حلة جديدة، تزينه الدروع والملابس الحديدية، ويحمل السيف، ويستبطن الخناجر المسمومة، وعلى رأسه التاج لم يعد، وحلت خوذة جديدة تغطي أنفه محله، وتحجب أذنيه. وفتحت غرفة الحرب، وعقد اجتماعا طارئا، ودقت الطبول من على الصوامع، والجوامع، والكنائس، والأديرة، وأيقن الناس أن الملك أعلن الحرب على العالم. وخرج في جيشه، ودخلتُ تلابيب روحي، ونفرتُ من المراقبة.

غاب الملك الذي لم أعد رقيبه عن البلاد أشهرا طويلة، لم يتغير شيء في المدينة، بقي كل شيء كما تركه، التزم الناس غير المجندين الهدوء، وفشت تعاليم الحاجب فيهم كأنها وصايا غير قابلة للتمرد. ولم يعد يدق أبواب المدينة الراغبون في العدل، وطال انتظار الناس الملك، وبدأ صبرهم ينفذ، بعد أن تناهت إلى المدينة أنباء الحرب التي تشن في المدن والقرى المجاورة، بين أنباء تصدق وأخرى تكذب، وتسلل الخوف إلى النفوس، وتنامت الرهبة في القلوب، فبدأ الناس يحجمون عن الخروج، ويكفون عن

العمل، وقلت المؤونة، وانعدم الأمن، وتربص اللصوص بالدكاكين، وفشى القتل غير المعلن بين الناس، من متربصين جهلة، لم يستطع الحراس القليلون المنتشرون على زوايا المدينة أن يستتبوا الأمن.

وتوالت الأخبار غير السارة، وكذب الناس الأنباء التي لا تحمل غير ما يسوء.

وفي فجر صامت، تناهى من الأودية الفارغة التي تحيط بالمدينة وقع حوافر الخيل تعود، وبرزت في غبشه الأول الأعلام البيضاء، وجرى الخبر في المدينة النائمة عن الملك العائد مظفرا، وفتحت أبوابها، ودخلت الجيوش صامدة كما خرجت، وزفت الأخبار، وتعالت الطبول صداحة، والمزامير صياحة. دخل الملك القصر، وشارف على الناس المجتمعين في الساحة من الشرفة الذهبية، ورفع يده، فصمت المحيون، وجال ببصره فيهم، وكأنه يراهم لأول مرة، واقتربت منه، وتخذت مكاني منه قريبا من خوذته التي لم يزلها بعد. والتفت إلي قبل أن يتكلم، وأشرت له أن يفعل، ثم قال:

- أهنئكم بالنصر المظفر...

وتعالى صياح الجمهور:

- هيييييي...

وأضاف:

- ولكنه بطعم الخيبة.

وندت عن الناس شهقة الإحباط:

- أووووووه...
- أيقنت اليوم أن سعادتي في شعبي الذي يحبني، وفي العدل أستنبته رخاء وملاذا.

وارتفع التصفيق كموج هادر، والتفت إلي الملك، فقلت له بأن يأمرهم أن يعودوا إلى حياتهم، ويعيشوا في سلام، ففعل. وقبل أن ينثال الجميع، همست في أذنه: زمردة لا تطيق غيبتك. وبشّ متهللا، ثم اختفى في القصر، وظللت قريبا منه أسمع وأرى.

أنا... والبيت الكبير

وقفت بإزاء البيت أتملى في قدرة الإنسان على بناء صرح مثل هذا، وفي خضمّ تأملي، أطلَّت نهى من نافذة الطابق الثاني وهي ترتفق أرضيتها، وقالت لي:

- أعجبك بيتنا الكبير؟

أردت أن أقول لها بأن بيتنا الصغير أفضل من بيتهم هذا، وأن السكينة التي تعمه عندما يعود أبي من العمل مساء، أحب إليّ من الفراغ الذي يتركه والدها عندما يجمع أبناءه وبناته في سيارته الفورد، ويحملهم بعيدا إلى بلد أجنبي لا أعرف موقعه. لكني لم أشأ أن أباشر عودتها بداية هذا الصيف بما ينغّص علاقتنا التي أريدها أن تكون بريئة تتخللها بعض الأفعال الطفلية الشنيعة. فقلت، وأنا أرفع رقبتي أكثر:

- نعم، نهى، إنه بيت كبير حقا، ليس في حينا بيت بحجمه.

لم أكد أتم كلامي حتى تراجعت إلى الخلف، وتركت فراغا حيث كانت تقف، أردت أن أعود أدراجي إلى البيت الصغير، لكنها عاجلتني.

- كريم، انتظر.

رفعت رأسي، فرمت لي ببعض الحلواء والعلكة والفانيد اللذيذ. انحنيت إلى الأرض ألتقطها، وكمشتها في راحتي، ثم عدوت، ألتهمها قطعة قطعة متعجلا.

في المساء شاع خبر عودة العائلة من رحلة العمل بفرنسا، وعزمت الحارة على تقبلها بحفل بهيج، يقام فيه أحيدوس، وتشرب فيه الماحيا، وترقص فيه الشيخات على أنغام أمازيغية من الأطلس المتوسط. الحاج رغم أنه حاج، يستدعي الكل إلى سطح البيت الكبير، فيُفرش بالزرابي التركية، وتفرق الصينيات على الزوايا، بأباريق الشاي الكبيرة، والكؤوس الكثيرة المزوقة، وكذا المقارج الفضية، والمجامر الملتهبة، وطنافس البخور العابق سحبا تتلاشى

في ظلمة السماء، ممزوجة بانكسارات الضوء المنبعث من المصابيح المعلقة إلى الخيوط البلاستيكية التي تربط بين زوايا السطح الكبير مشكلة تقاطعات غير ملتهبة.

يتزاحم الجميع على السطح، قبل أن يستقروا في الأماكن المعدة لهم، فيجلسون أو يتكئون أو يضطجعون على جنوبهم. وقبل أن تصدح الأهازيج يُعد الشايُ ويحتسى أولا، ثم تتناول الوليمة، ويحتسى الشاي بعدها ثانيا، وتدار كؤوسه الملآى، ثم تنغّم الكمنجات، وتشد أوتارها، وتسخن البنادر، وتجرب العيدان. في خضم ذلك، تُسمع همهمات الجالسين المتكئين المضطجعين، في لذة المساء الغابش، ورائحة الطواجين التي أُكلت للتو، فتقوم الشيخات في فساتينهن البيضاء، وأحزمتهن السوداء التي تلتف حولها الموزونات اللامعة، ويتحركن على إيقاع التجريب، ويحركن بطونهم البارزة في جمال ولذة، ويتلاعبن بضرب الأرداف على الأرداف، وابتساماتهن العريضات لا تفارق وجوههن المصبوغة، وشفاههن المعكرة بالحمرة القانية، وبين الفينة والأخرى، يحركن الصدور الممتلئة، رافعات

أذرعهن لتستقيم الوقفة المتمايلة، ويَنْوَزِنَ إيقاع الحركة الصادرة من أعلى وأوسط.

ثم يبدأ الموَّال الفاحش، وتدخل الآلات الموسيقية في خضم الكلمات رويدا رويدا، حتى ينفجر المكان بالغناء الضاج، ويتفاعل الحاضرون منذ الجرة الأولى، والنبرة الباحَّة الفاتحة. في تلك اللحظة، أتراجع إلى الخلف، وأبحث عن موطئ قدم في الدرجات، حتى أستطيع تتبع المشهد ومراقبة الصاعدين النازلين إلى السطح، وتنهرني الوجوه المتعددة بترك المكان دون إصرار لانشغالها بشتى المهام، فأقبع منزويا، أستلذ إيقاع الجسد الشيخي المتناغم مع الموسيقى، وأكره حركات المتفرجين ولمزاتهم وغمزاتهم.

في السطح جانب مظلم به غرفة غير مكتملة البناء، لا تصله أضواء المصابيح المعلقة، عندما صعدت نهى أمسكت معصمها في الدرج، وقلت لها بأنه لم يصلني شيء من مرق اللحم، ولا فاكهة البطيخ الأحمر. فتنظر إليّ مستغربة، وتستنكر ذلك بوجودي بالدرجات بالقرب من النساء اللواتي يتكفلن بتوزيع الطواجين على الموائد التي تسبق إليها دوائر الخبز الشهية، فأحلف بسيدي امحند

أومحند أني لم أذق شيئا. فتعود أدراجها، نازلة إلى الطابق الأول، ولبرهة أنساها، وأتملى في الرقص الأمازيغي الأخاذ، واللوحات الفنية التي ترسمها الشيخات البيض جسدا ولباسا في عتمة مضاءة بحِشمة بالغة، وأصمّ أذني عن سماع اللمز والهمز. حتى تأتيني نهى، تمسك بيد ربع خبزة بمرق وبرقوق ولحم طري، وبيد أخرى قطعة من البطيخ أحمر غليظة شهية. آخذها منها جميعا، وأشكر لها صنيعها، وأدعي أن الزحام لا يسمح بتناول ذلك بخاطر، فتمسك بمعصمي هذه الكرة، وتجرني إلى الغرفة، فتقول: "ستأكل هنا مرتاحا، يصلك الغناء بلا مشاهد"، وأقول لها: "ابقي إلى جانبي حتى أتمّ أكلي" فتبقى، ونبقى معا، وألتهم الوجبة بسرعة، ثم نقف معا إلى السور الصغير فنرنو من فوقه إلى جلسة الاحتفال. ألتفت إليها، وأنا أمرّر لساني على شفتي، ثم أبتسم، فتنهرني، وتقول لي لا تفعل ذلك، يجب أن تتأدب. ثم أرمي ببصري إلى الشيخات، وأقترب رويدا من نهى الواقفة الماسكة بأصابعها على حافة الحائط. ألتصق بها، ثم تلتفت إلي، وتبتسم. أقترب أكثر، فأشعر بجسدها اللين في رائحة الطفولة التي تغمره، تلتفت فلا تشيح، وأقول لها هل نلعب لعبة العريس والعروس، ثم تضع إصبعها على شفتيها

الصغيرتين، علامة طلب الصمت، فنلوذ بالحائط، ونجلس في قاعدته، مولين ظهورنا للنور. نكتفي باللعب بأصابعنا الصغيرة، ثم أقبلها على وجنتها، وأقول لها "هكذا رأيت أخي الأكبر يفعل مع أختك الكبرى"، فتضحك ببراءة، ثم تعبث بأصابعها من جديد. فجأة تطل علينا التي ذكرناها للتو، فتنهر نهى نهرا شديدا، وتجرها من يدها، وتعبر الساحة، ثم تنزل بها الدرجات. وتتركاني بالغرفة قابعا أتحسر. ثم أنبِّه نفسي إلى أن المكان مشبوه، فأغادره، وألتمس موضعا بين الجالسين في الحفل، حتى أحتمي بهم إذا داهمني الحاج أو والدة نهى. وأنظر من غير أن أرى، وأسمع من غير أن يصلني شيء، كان الفضاء صامتا، والأشخاص يتحركون في إيقاع الموتى.

في الصباح، أجدني نائما حيث كنت مستلقيا، وفي بعض الأركان صبية آخرون، تلفحنا شمس غشت اللاهبة، فتوقظنا، ولا أجد شيئا غير بقايا الحفل، فأنزل الدرجات، قاصدا بيتنا الصغير، وأنسى أني لعبت ونهى ليلا بسطح البيت الكبير.

أنا... والمدينة

اختفى كل شيء، المدينة بكاملها، عماراتها، شوارعها، مبانيها الضخمة، جسورها المعلقة، محلاتها، كل شيء. لا أثر لأيّ دمار، ولا دخان يصّاعد في السماء، الهدوء يعمّ ما تبقى منها، والصمت الأزلي عاد يرجف فيها من جديد. لا سيارات، لا شاحنات، لا حافلات، لا ترام، ذهب كل شيء كان هنا واقفا دارجا. أين اختفت المدينة؟ هل انشقت الأرض في غفلة من أهلها، وخسفت بهم؟ هل تم الأمر ليلا؟ أم صبحا وساكنوها يشهدون؟ المهم كل شيء قد تم. بقيت بعض الشقوق الصغيرة التي تنتشر في ما كان يسمى مدينة، في شكل خرائط هندسية بديعة، تصدر منها أشعة صفراء، وأصوات تكاد لا تسمع.

المدينة لم تعد مدينة، لكن الناس لم يبرحوها، إنهم في كل ركن منها. المدينة عارية، تكشف عما كان مستورا منذ

قرون، العري يفضحها والناس تائهون، يبحثون عن أنفسهم، ويتساءلون في دهشة واستغراب.

قال صبي: "اختفت لعبي، ولم يعد بإمكاني استرجاعها".

قالت فتاة: "تبخرت أحلامي، فلا جدران تأويها بعد اليوم".

قال شاب: "لن أتزوج من أميرتي، فالعري عدو الزواج".

قالت امرأة: "يا للهول، ستهجم علينا الغابات، وتلتهمنا الحيوانات".

قال رجل: "الحضارة تموت، فلنبحث عن الحكيم"...

هل العالم كله اختفى؟ كيف نعرف ذلك؟ لا هواتف، ولا أنترنت، ولا شاشات تلفزة عملاقة تعرض الحدث في أماكن أخرى من العالم. غدا العالم الذي نعيش فيه صغيرا منعزلا ساكنا هامدا كأنه وُلد للتو. أين المفر؟ ولكن، لِمَ نفرّ ونحن في عرينا الأزلي؟ وها نحن أولاء بلا مأوى، وبلا أكل. دواجننا لا وجود لها، ومعلباتنا كذلك. والمياه؟ أين هي

المياه؟ لا صنابير ولا قنوات حديدية تجري فيها، من أين سينبجس الماء؟ وكم سنعيش إذا لم نشرب ولم نأكل؟ لا كلاب، لا قطط، لا صراصير، لا ذباب حتى ولا بعوض. هل نحن في حلم أم في كابوس؟ أم في حياة حقيقية تنخلق فينا قدرا غير متوقع، إننا نكرهها هذه المدينة التي تخلت عنا، ولم تعد مدينة. يا إلهنا، أين اختفى كل شيء؟ ولماذا بقينا نحن البشر على قيد هذه الحياة؟ هل سننجو إلى حياة أخرى؟

ولم يستقم غير السؤال.

ولم تنبثق ما خلا الدهشة.

وفَضُل الناس وحدهم في ملابسهم التي كانوا نائمين فيها. هل بإمكانهم أن يسألوا الساهرين ما الذي حدث ليلا وهم غافلون؟ نعم، ولكن لا أحد يعلم شيئا، حتى الساهرون أنفسهم لم يشعروا بأن هناك تحولا، أو انتقالا من وضع الوجود إلى وضع العدم. قالوا بأن المدينة تلاشت كما يحدث لضباب متراكب على زجاج بارد مسته أشعة الشمس فتلاشى واندثر. كذلك المدينة تهاوت كجبل ثلج في المحيط، وكقطعة سكر في فم أدرد. إنهم عرايا.

عادوا يتساءلون، ولم يجدوا جوابا.

تشكلوا زمرا، وتفرقوا في طرقات المدينة، تلك التي كانت شوارعَ لامعةً بأضواء أعمدة الكهرباء، والمصابيح المبثوثة في أرضيتها، الشوارع لم تعد شوارع تجري فيها السيارات، لقد استحالت طرقا متربة، تنمّ عن آثار حضارة زالت في طرفة عين، من دون أن يعرف أحد كيف، ولا متى. سارت الزمر تخِبُّ في الأرض، تضرب الحصى، وتقلب العيون في التراب، وكأنها تبحث عن ماضيها التليد، ذلك الماضي الذي خذلها فانسحق إلى بدايات التاريخ الأولى، وكأنه يعِد بعدم العودة. ولم يصل الناس إلى شيء، تعبوا من اللحاق بالطرقات المتربة، وأنهكوا من المشي تحت سياط الشمس اللاهبة، وزاد في تعبِهم العطشُ الذي استبد بضعيفهم قبل قويهم. ومالوا عن الطرقات، وارتموا في جنباتها، يلهجون، ويبكون الحضارة الميتة في صمت، وفي نشيج. ولما استراحوا عادوا إلى حيث كان منطلقهم، عند مركز الخراب، وتجمعوا من جديد.

بحثوا عن الحكيم، فوجدوه صفرا من الحكمة، استحال رجلا أبلهَ بشعر أشعثَ وجسد بال متسخ.

- "أيها الحكيم خبرنا عما حدث، أين المدينة؟"

تحجر باسما، وبرقت عيناه المختفيتان في شعره المغبر، وضحك ببله شديد. لم يقل شيئا، فرّ هاربا، معتقدا أنهم سوف يلقون القبض عليه، وينظفونه، ويلبسونه الجديد من الثياب. ولى لاهثا، وعند الجبل استراح، ولم يعد يتأمل الوجود كما كان يفعل من قبل، ولا يزال يكره الناس كما كان من قبل، برغم بقائه فارغا من علمه وحكمته.

هل ذهبت المدينة الغابرة بكل شيء؟ هل حملت معها صروح العلم والحضارة؟

واجتمع الناس زمرا صغيرة، وتفرقوا في المدينة شذر مذر، وأثارتهم الشقوق التي تشرخ الأرض خرائط هندسية، فاستلقوا على الأرض، ورموا بعيونهم فيها، لكن الأشعة المنبثقة منها منعتهم النظر فيها، وسمعوا أصواتا تشبه أصواتهم، وأحاديث قريبة من أحاديثهم، ونظروا بعضهم في بعض، وتساءلوا: هل نحن هناك؟ أم إننا نسخ متعددة من ماض سحيق؟ هو الذي يظهر الآن بين الشقوق في عمق الأرض، هل نحن نحن؟ أم نحن هم؟ أيننا الآن؟

هل اختفت المدينة حقا؟ أم نحن الذين حُملنا إلى مكان آخر من هذا العالم الفسيح؟

ولم يجدوا جوابا، وبقي السؤال منتصبا محيرا.

والتموا مرة ثانية، وقد يئسوا من الشقوق والأصوات، وعزموا على الرحيل بعيدا عن اللامدينة. وساروا صامتين، كأنهم في بعث من موت محتوم. وَقْعُ أقدامهم لحنٌ رتيبٌ، وتنفسهم منتظم يكاد يكون واحدا متكررا، وتركوا المدينة الضائعة خلفهم، ولم تتركهم شمس ذلك اليوم، فالنهار برغم اختفاء المكان نهار، والليل يصير ليلا، لأن الشمس في مدارها لا تأبَهُ لشيء، ووجهتهم واحدة: الغابات.

في الغابات وجدوا الحياة، الأشجار والعصافير والحيوانات والمياه المتدفقة. سُرُّوا بذلك، وبحثوا فيها عن معالم المدينة، علها تكون قد انتقلت وسبقتهم إلى هنا، لكنهم لم يعثروا لها على أثر، أزالوا ملابس المدينة عن أجسادهم، ولبسوا العري وأوراق الشجر، وقطعوا الأخشاب، ونصبوا أكواخا منها على ضفاف الأنهار، ومدوا جسورا خشبية فتلوها بحبال من لحى الأشجار، وصنعوا حياة العودة،

فبدت المدينة نائية وحل الهدوء، ونأت المسافات، واتصلت الحميمية والألفة وتفشى السلام.

وشكلت الزمرة مجتمعا صغيرا، وحكمته الأعراف المتفق عليها، وانسل الصغار من البطون العريانة المنتفخة، وخرج الشبان إلى الصيد، والكهول إلى الحقول للزراعة. ومرت السنون والعقود، ونسي الناس المدينة المختفية وشأنها، وتحولت حكايةً تنقلها ألسن الأمهات إلى آذان الصغار.

وذات مغيب...

سمعوا في مشارف الغابات صوتا تقليديا غير غريب، محرك سيارة مما كان صنعه الإنسان بالمدينة. وعاد السؤال وارتفع العجب، واستقامت الدهشة من جديد، هل عادت المدينة؟ هل رجعت من رحلتها اللامتوقعة؟ إنه صوت محرك سيارة، وأكيد أن سائقها إنسان قديم يرتدي ملابس الماركات العالمية ويضع نظارات موقعة. وأرسلوا في أثر الصوت، وتربص الشبان به. وعند الفجوة من الغابة القصوى، توقفت السيارة، والشبان يحدقون فيها من دون أن

تكون في أنفسهم رغبة الاقتراب منها. وتساءلوا غير جادين في البحث عن جواب.

ترجل الحكيم منها في بذلة سوداء وربطة عنق ونظارات، اقتربوا منه في عريهم وحملقوا فيه.

- "أحمل إليكم خبر عودة المدينة والعمران، أبلغوا الناس بالأمر وعودوا قريبا".

انقلبوا غير خاسئين، ولما أدركوا الأكواخ، أشعلوا النيران ليلا، وهتفوا:

- "فلتذهب المدينة إلى الجحيم عبر شقوقها".

حمير القبة

- لن أبيعك حماري هذا ولو وضعت بين يدي مال قارون.
- اتق الله يا رجل، تبيعني الحمير وأشتريها منك لأزيد من عقد من الزمان.
- إلا هذا..
- حمار شيخ، لم يعد يصلح لشيء.
- شيخ، ومنهك، ولكن الحكمة لا تعطى إلا للشيوخ من الحمير.
- هل جننت؟ حمارك هذا برغم شهبته لن ينفعني في كثير شأن.
- لن أبيعَكَهُ، انصرف عني، ودعني في شأن حماري.
- لِمَ تصر؟
- إنه حمار يتكلم..

- حمار يتكلم؟؟
- نعم، نعم..
- لقد جننت فعلا، لماذا لم يتدخل في حوارنا هذا؟ أجب.

أدار الحمار رأسه الطويلة في اتجاه مالكه، وأحنى مالكه رأسه إليه، لينظر في عينيه الكبيرتين المجهدتين، ثم رفع رأسه، واقترب من صاحبه، حتى كاد أن يقبله، وجسد الحمار يفصل بينهما. فقال له:

- لا يتكلم إلا في ظرف خاص.
- وهل لكلام الحمير ظروف خاصة حتى تتكلم فيها؟
- في قبة الحمير.
- قبة الحمير؟ لم أسمع بها من قبل.
- سأريكَهَا، وما قدومي السوق اليوم إلا من أجل شأن يهمني، ولا نية لدي لبيع الحمار.

لحق الصاحب برجلنا، الذي يجر حماره المتعب من لجام من حبل مفتول، يحيط بأذنيه، ويربط رأسه بفمه من دون أن يطبق عليه، فهو يمر عبر صدغيه المرتخيين. يغمغم بكلام غير مفهوم، لا يكاد صاحبه يسمع منه شيئا. ومن خلف الحمار الرجل الحائر، يهرول من غير أن يحتاط

من الأحجار المتفرقة على الطريق المتربة الصاعدة إلى قمة الجبل. ينظر إلى الحمار طورا، وطورا آخر إلى صاحبه ويتساءل: "حمار يتكلم؟ أين كانت هذه؟ حتى في زمن الخرافة لم يحدث. كيف لحمار في قبح هذا المخلوق أن يلفظ كلمة تستقيم على لسانه؟ وأنى لبهيمة لا عقل لها أن تفكر فتخرج الكلام سويا يسترسل على لسانها؟ لسانها الغليظ لن يستقيم عليه الكلام حتى لو قدرت على ذلك، فهو يملأ فمها كله. وأشداقها؟ من البشاعة، بحيث لو رفعتها لتلجلج المخاط من أنفها، وانتشر على وجهها الطويل كله. من أين سيأتيها الكلام؟ لو كان هذا المخلوق طيرا لتكلم. لقد تكلم الهدهد مفصحا، والنمل محذرا، والنحل راقصا، والديك صياحا لإيقاظ الأفجر. كائن كهذا يتكلم؟ لا أبدا. حتى لو سمعته بأذنيّ فلن أصدق ذلك. ولكن لِمَ أتبع العجوز؟ هل صدقته؟ أليس لي شغل أنهمك فيه، وأكف عن نفسي تضييع الوقت في ما لا يرجى منه نفع؟ ولم يكد ينهي كلامه إلى نفسه، حتى عاجله صاحبه:

- انظر، القبة هناك في أعلى الجبل.

رفع الحائر رأسه الثقيلة، فبدت له قبة بيضاء من خلل أشجار الغابة، مستديرة الشكل لماعة تحت وهج الشمس التي تنتصب في كبد السماء بشراسة. ومن خلفها قمة الجبل حجرا سلسا لا شيء عليه من نبات أو شجر. ومن خلفهما معا الفضاء العاري تماما.

- كيف سنصل إليها؟ يبدو أن الطريق غير سالكة من بين الشجر الكثيف والصخور الناتئة.
- لا عليك، الحمير تعرف طريقها.

نهق الحمار بثقل شديد ورعب شرس، وأطلق الرجل من الحبل الذي يشده به، وظرط، ثم التفت إلى صاحبهما، وتصفحه بوجه لا تعابير عليه. اشمأز منه، وضرب بكمّ جلبابه على فمه وأنفه اتقاء الرائحة الكريهة، ثم نزل الحمار من طريق منحرفة جانبية.

- هل نلحق به؟ يظهر أنه استعاد نشاطه، فجدَّ في السير.

اقترب الرجلان من بعضهما، ونزلا مسرعَيْن.

- هيا لنلحق به، سنفقده.

ولحقا به بسرعة، وجاهدا من أجل التحكم في نفسيهما لئلا يسقطا عن الحيف من الجبل، وصار الرجل خلف

صاحبه في حذر شديد، فالطريق ممر ملتو ضيق لا يتسع لاثنين، ووجهه المحصى تنتشر به قطع من أحجار حادة وناتئة، أحدث الاحتكاك بها ندوبا في أقدام الرجلين، لكنهما حريصان على تتبع خطى الحمار الراكض برشاقة، وبردعته تتقافز على ظهره من دون أن تسقط من عليه.

التفا على الجبل يمينا، فبدا أمامهما مدخل متسع تحف به الأشجار، وساقيتان يجري فيهما الماء عذبا رشيقا، في نهايته باب زجاجي ينفتح تلقائيا. قبل أن يتقدما أكثر، لمحا الحمار قد خف، وبدأ يمشي الهوينى، على إسفلت من رخام، تكاد صورته تنعكس عليه، يسمعان وقع حوافره على الرخام، وصداها يرده الجبل الفارغ كأنه لحن جنّ. وضعا أقدامهما على الممشى الرخامي، فتناثر التراب من أحذيتهما البالية، وحفهما برد عليل، ونسيم مريض، وشف مسمعهما زق عصافير لا يدريان من أين ينبعث، ثم بصرا بحمارين أسودين يقفان على مصراعي الباب الزجاجي.

لمز الحائر صاحبه، ولم يتكلم.

غمز الصاحب رجلنا، وضحك متبسما بلا صوت.

ثم أشار له بيده أن يلتزم الصمت، فوضع سبابته على شفتيه، وكبح ضحكة مجلجلة. شعر أن صاحبه سيتبول في ملابسه، لذلك أظهر له عدم الخوف، فتقدما بريبة لا بثبات.

انفتح الباب، فدخل الحمار الأشهب، ثم انغلق، ولم يعد يظهر لهما ما يوجد بداخل القبة. لحقا به، وعيناهما على الحمارين الوسيمين بجانب الباب، وعينا الحمارين عليهما أيضا، امتدت دقائق معدودات كانت طويلة وسحيقة، ترقب الحائر أن يرده أحدهما، خاصة ذلك الذي يقف بالجهة التي يمر بها، أو يوقفه فيطلب منه بطاقة هويته، ما جعله يمسك بيد صاحبه، ويشد عليها بحرارة حتى كاد يدميها، وهو يبتسم ببله في وجه الحمارين الواقفين في شموخ العز.

انفتحت البوابة، ودلفا عبرها.

ازداد الجو برودة ونعومة، وتألق الفضاء من حولهما في أبهة حمارية لا نظير لها عند بني البشر. حفتهما وسعة مدوخة، ممرات رخامية طويلة، وعميقة جدا، أدراج عالية ملتوية، تحفها قضبان حديدية ملتوية تلمع من شدة نقائها، عليها تنعكس الصور الشاخصة التي يلذ للناظر أن يتملى فيها على القضبان. إلى جانب ذلك غرف كثيرة، ينفتح بعضها على بعض، ويجاور بعضها بعضا، كما أن قبالتهما

تمتد غرف مبنية فوقها غرف. لكن غير العادي في المشهد أعداد الحمر والأتن التي تنتشر في كل رَجًا من أرجائها، وفي كل ركن من أركانها المتباعدة كأنها النجوم. أحجامها مختلفة، وألوانها متفاوتة، وأصواتها متشابهة، لا شيء يفرقها عن الإنسان إلا اللكنة الغريبة التي تتميز بغلبة قليل من النهاق عليها. إذا تكلم واحد منها ابتدر بنرفزة نهيقية، ثم استقام الكلام من بين شدقيه الأملحين. وعندما ينهيه ينهق بخفة إيذانا منه إلى أنه قد أتم الكلام، لكنه مع ذلك، تبقى في حسبان الرجلين كلاما مبهما غير مفهوم.

في هذه الأثناء زادت دهشة صاحبنا، وتجلت عنه الغرابة التي شمتله قبل أن يدخل القبة. جبذه صاحب الحمار إليه، وصعدا درجا نحو يمينهما.

- إلى أين تجرني؟ يكفيني ما رأيت وسمعت، لنعد أدراجنا، قبل أن نتحول بين يدي هذه البهائم الناطقة إلى عبيد نحمل أثقالها، ونعجم في الكلام.
- نحن البهائم يا هذا. ألم تر ما هي فيه من عز وجاه وسمو ورقي؟
- رأيت، واكتفيت، لنعد.
- ليس قبل أن نحضر اجتماع القبة..

- اجتماع القبة؟
- الجلبة التي نحن فيها الآن، وعجلة الحمر من أمرها، كلها علامات على قرب بداية الجلسة.
- الجلسة؟
- جلسة القبة الشهرية، تعال.

وجره إليه، وصعدا الأدراج، ولما استقاما في الطابق الأخير من البناية، انحرفا يسارا، وهما يحاولان ألا يصطدما بالبهائم التي تسرع في المشي، ذهابا وإيابا، محدثة قرقبة وجلبة بحوافرها اللامعة المصبوغة ألوانا براقة.

وعند نهاية الممشى فسحة واسعة، عليها كراس متعددة، يجلس عليها عدد كبير من الناس رجالا ونساء. سلكا بين الجالسين حتى بلغا كرسيين فارغين عند الشرفة تماما، فقعدا.

مرت بهما أتان ذات جسد بض، أردافها ممتلئة رخوة، وضرعها نافرة محمرة، تتدلى منها أربعة أصابع ملساء، تحمل عصيرا وحلويات، وقدمتهما لهما مرحبة.

- هقهق، تفضلا سيداي، لا بد أن الطريق أتعبتكما، وأرهقتكما، هقهق.

ثم رمشت بأهدابها الغليظة شديدة السواد، وانفرجت أشداقها المصبوغة بالرمادي البارد عن بسمة حمارية كشفت عن أسنان كبيرة عريضة بيضاء ناصعة شديدة الرص، ثم تناولا ما رغبا فيه. وقبل أن يؤخذ الحائر الذي زالت حيرته بالموقف الذي هو فيه، قال له صاحبه وهو يحاوره:

- أتعرف لم أنت هنا؟
- لأتأكد أن الحمير تتكلم.
- ثكلتك أمك وخالتك كلاهما، هذا أمر كنت ستعرفه عاجلا أم آجلا.
- لم إذن؟
- لنتعلم من الحمير الحضارة..
- حقا؟
- والحوار..
- كذلك؟
- ستبدأ جلسة القبة بعد قليل، وستسمع بأم أذنيك، فتلعنَ مدرستك التي تعلمت بها الخرف وسِقْطَ الكلام المعوج. هل ولجت مدرسة ما؟

- قسم من البناء المفكك، رص على حاشية الوادي في الدوار.
- تخطيط مرتجل من مسؤولينا النشالين.

كفّ الرجل، والتفت يتفحص الجالسين إلى جانبه الذين سبقوه إلى الجلوس، فوجد رجلا بربطة عنق زاهية، وبذلة أنيقة جدا، ومن ورائه امرأة بكعب عال، وفستان أزرق ضيق، ومن خلفهما أطفال بلباس المدارس الأزرق الموحد. في الجهة الأخرى رياضيون في بذلات رياضية بالأحمر والأخضر، ورجال درك وبوليس بطرابيشهم، وأطباء بوزراتهم، ومعلمون، وأساتذة متعاقدون على الخيانة، وسياسيون أخرقون، ورجال المطافئ المتأهبون، وموظفو البلديات والجماعات القروية النائمون جلسا، وحراس السيارات بستراتهم الصفراء وصفاراتهم، والقواد، ونساء يبدون من ملامحهن بغايا قحابا لا يكففن عن الالتفات في كل اتجاه، يتصيدن الأساتذة والرياضيين.

استدار الحائر إليه، وقال:

- أريد أن أسألك.
- اسأل، عليك الأمان ما دمت في قبة الحمير.
- أين حمارك؟

- سيرأس الجلسة، لابد أنه تأخر في الوصول.
- هو من سيرأس الجلسة؟
- نعم، طبعا.
- هاه، لذلك لم تشأ أن تبيعه لي.

وتبسم صاحب الحمار بزهو كبير.

الحمير كلها في القبة تستر عوراتها بمناديل زاهية الألوان، تشترك كلها في كونها تحمل الرسومات نفسها، صورا لزمر من الناس متحلقين حول حمارين يجلسان إلى منصة عالية، وكأنهما قاضيان يفضان نزاعات البشر التي لاتنتهي، غير أنه يبدو أنهم - أي البشر - يحملون أكياسا توزع فيها بعض المعونات المادية، سكر وزيت ودقيق وشاي وعدس ولوبياء. الصور نفسها على المناديل المحزومة على عورات الحمر والأتن، ولكن بألوان مختلفة. أمر واحد حيَّر الحائر، وهو أعضاء الذكورة الطويلة، فهو على حرصه على تتبعها ومشاهدتها، لم يستطع إلى ذلك سبيلا، وتعجب كيف أنها اختفت أو ضمرت إلى حجم لا يسمح لها بالبروز كما في حياته الآدمية. أراد أن يسأل صاحبه، ولكنه تردد في ذلك، وكتمها في نفسه، ولم يبدها مطلقا. لو حدث وندّ عنه سؤال بخصوصها، لصفعه صاحبنا

بظاهر يده العريضة من دون أن تأخذه عليه شفقة ولا رحمة تذكران.

أُتُنُ الحُمُر لا تغطي أضرعها، سواء كن ممن يُرضعن الأجحش الناطة القافزة، أو ممن لم يقترن بعد بزواج. تعرف هؤلاء بالألوان الناصعة التي يضعنها على قوائمهن الأمامية، أما المتزوجات فلا يضعنها أبدا، ولا يرسلن أظلافها طويلة حادة كما تفعل العازبات.

استغرب الرجل الحائر من حياء الإناث بشكل كبير، فهو لم يعهد مثله في حياة البشر الوقحين، إناثا خاصة. فرغم لباس الأتن الفاضح، فإن العلاقة بينها والذكور علاقة يشوبها الاحترام المطلق، والتفاني في التقدير، والمبالغة الحقة في الاعتزاز بالنوع، والعمل ظاهرا على احترام الجنس في نوعيته وخصوصيته الإيجابية.

أزيل الستار من أمام الجالسين في الفسحة، فظهرت الجلسة تغمرها الحمير في قلونسوات بيضاء. ضرب الحمار الأشهب بمطرقة ناعمة على رخامة المنصة الذهبية التي يعترشها، وقال:

- باسم القبة نفتتح جلسة هذا الإضحيان، وألتمس من السادة النواب الحمير، والسيدات النائبات الأتن، أن

يلتزموا كلهم بجميع ما توصلوا به في بريدهم الإلكتروني ليلة أمس بخصوص جدول أعمال الجلسة، وأضمن من موقعي هذا أن تسير الجلسة وفق متطلبات النقاش الفعال، والحوار البناء، والمسؤولية التقدمية، التي نستشعرها نحن الحمير ممثلي أمة الحمير ببلدنا السعيد هذا، وبقبته خاصة.

التفت الحائر إلى صاحبنا، وقال ملاحظا:

- يبدو أن حمارك هذا مفصح، لا تشوب كلماته لكنة النهق كبقية الحمير بالقبة.

رد الرجل صاحب الحائر، دون أن يلتفت إليه، مركزا انتباهه على سير الجلسة أسفل الفسحة.

- ملاحظتك قيمة.
- دائما.
- الحمر في الجلسة لها مستوى تعليمي عال جدا، هذا شرطها الأول لتكون في مجلس نواب الأمة. شعب الحمير لا يختارها في انتخابات تهدر فيها الملايين من الدراهم، ولا من صناديق اقتراع شفافة من غير نزاهة أو شرف محتد. كل حمار، يملك شهادة عالية مسلمة

من أعتى الجامعات، آنس في نفسه القدرة على تمثيل الجماهير، وتحقيق أحلامها، وتقريب آمالها، وإبعاد همومها ومشاكلها في التعليم والصحة والسكن والمعيشة عامة، يرشح بوسام الاعتراف من درجة حمار ممثل.

- وسام الاعتراف؟
- نعم، تسير القبةَ لجنةٌ من شيوخ الحمير، متقاعدة بلا ريع ولا معاش، مسؤوليتها توشيح المؤهلين لتحمل المسؤولية بوسام الاعتراف.
- ومن يختار اللجنة نفسها؟
- لذلك نظام خاص، مركزي التحكم، رقمي التدبير، يستدعى بحسب شرطين اثنين.
- ما هما؟
- الأول: العضوية السابقة في مجلس القبة.
- والثاني؟
- التقدم في السن، مع رجاحة العقل وعدم الزهايمر.

ضرب الأشهب على المنصة من جديد، ورفع رأسه الطويلة إلى الفسحة.

- تأدبوا في حضرة الجلسة أيها البشر.

وهمز الحائر صاحبنا بلطف، وأطبقا معا في صمت مريع.

قام حمار شاب في قلنسوته البيضاء، واستقام أمام المجلس، وعجب الرجلان من قدرته على ذلك علما أنه كان دابة تمشي على أربع، ثم رفع عقيرته، وفتح فمه، وتكلم بأدب غاية في الظرافة، متحمسا دافع عن حقوق البشر في التطبيب خاصة، فوجه سؤاله إلى وزير الصحة والعناية الربانية، فقال:

- بناء على تقرير وزارتكم الموقرة، يتضح لنا نحن ممثلي الشعب أن هناك تضييعا لحقوق البشر في الاستفادة من التغطية الصحية المجانية الكاملة، بإقصاء بعض الموظفين منهم، أو احتساب غير عادل لسنوات خدمتهم في القطاع، الشيء الذي لا نجد له أي مسوغ في القوانين التي تنظم القطاع.

وقبل أن يجيب المعني بالأمر، تقدم حمار آخر رمادي اللون، أكبر سنا من سابقة، واستقام أيضا، وتكلم بأدب

رفيع، وطفق يحملق في الوزير من أعلى نظارات يضعها على عينيه. وقال:

- ارتفاع أسعار المواد الغذائية الأساسية في شهر رمضان الذي انصرم قبل ثلاثة أيام فقط، يدل على تخاذل الحكومة في اتخاذ القرارات الحاسمة في ردع كل مخالف لتوجيهاتها قبل حلول الشهر الفضيل بخصوص خفض الأسعار، وتجويد البضائع المعروضة في الأسواق. الشيء الذي انعكس سلبا على القدرة الشرائية لدى المواطنين من بني آدم، وعلى أدائهم المخلص لفريضة الصيام والقيام في شهرهم المبارك. وعليه ألتمس من السيد الوزير أن يقدم للحاضرين الخطة الكفيلة باسترداد ما ضاع من حقهم في تدارك مستوى معيشي يليق بهم كبشر، علما أنه يستبعد أن تكون لديه خطة فورية من أجل تدارك روحانياتهم التي يرونها أهم من معيشتهم اليومية. وأنا من منبري هذا، وبسؤالي هذا أبرئ ذمتي، وذمة فريقي الذي أنتمي إليه من أي ذنب أو جرم عظيم أو هين قد يصيبنا، من جراء هذا التفريط.

وتوالت المداخلات، وأنصت الكل في احترام مقدس، وتوفق الأشهب في تسيير الجلسة من مقعده على المنصة، وانبرى الوزراء الشيوخ في الرد على كل الأسئلة، التي تقررت في جدول الأعمال، من دون زيادة ولا نقصان، وانفض حمير القبة مبتهجين، وبقي في غرفة منعزلة من القبة الوزراء ليضعوا من فورهم خطة تدارك الأخطاء التي ارتكبوها أثناء فترة الشهر الأخير من عمر القبة، علما أنهم لا يمكهنم أن يغادروا القبة إلا وقد توضحت كل المعطيات، ورجعت الأمور إلى طريقها العادي، وإلا استقالوا جميعا عن طواعية، وأعلنوا ذلك قبل بدء جلسة الغد، لتقرر لجنة الشيوخ في العقوبات التي سوف يتلقونها أو منح الغفران وإخلاء السبيل.

قال الحائر في أمره، في خضم التصفيق المتدفق من الجمهور البشري الجالس في الفسحة العلوية:

- إنه لجنون أن نسمع نقاشا بهذه اللغة العالية وهذا الأدب الجم وهذه المسؤولية النادرة.

رد عليه صاحبه، وهو يفرك ذقنه:

- خيارنا الوحيد للخروج من الهمجية إلى التحضر أن نسير في ركب الحمير.

وعقب الآخر:

- جنون حقيقي.. إذا كانت هذه حمر تتكلم، وتناقش، وتأخذ، وترد، فمن نكون نحن؟
- نحن الحمير العاقلة الناطقة حقا.

ثم أردف الأول مستفهما:

- أريد أن أسألك من جديد.

وأفسح له صاحبه بإشارة من يده المبسوطة.

- أحقيقي ما حضرناه؟

وضرب على يده براحة كفه المفتوحة.

- نحن نحلم فقط، ولكن كن متيقنا أنه أفضل من الواقع البئيس العائشين فيه.
- فعلا، تبدو هذه الحمر مسالمة، مهمومة بأوضاعنا ومستقبلنا.
- هي كذلك.
- ولكن ما الذي أوصلها إلى هذا؟ أريد أن أقول، كيف أمكنها، وهي البهائم البُكم أن تصل إلى هذه المكانة الرفيعة والمنزلة البعيدة؟
- سؤال سهل ومشروع.

- لم تجبني.
- نحن من قام بذلك، عندما تخلينا عن إنسانيتنا الراقية فينا، تلقفتها الحمر لقربها منا، وللشبه الموجود بيننا وبينها خاصة على مستوى التركيز والانتباه. ألم تلاحظ مثلا كيف ينظر الحمار إلى شيء ما يتحرك بالقرب منه أو بعيدا عنه؟
- لا، لا أنتبه لمثل هذه الأشياء. كيف يفعل؟
- إنه يحدق بتركيز، ويرفع أذنيه مستقيمتين، ثم ينهق علامة إدراك المنظور إليه متجليا.

وتلاشى الحوار في بهرجة التصفيق المتصاعد، وفي ظل وقوف الجالسين، مشجعين بحرارة تكاد تقدح النيران من أكفهم. حينها طفق الرجلان يصفقان برتابة قاتلة، وخرجا من القبة الحميرية مع الخارجين. وبمجرد تجاوز الجميع الممشى الرخامي، تفرقوا في الغابة رُتَّعا، وسار صاحبانا في الطريق نفسها عائدين بلا رفقة الحمار الأشهب، وعند المنحدرات بدت لهم مشاهد بشرية فظيعة، لم يستطع سارد هذه القصة أن يحكيها خجلا من نفسه، ومن ذكرى قبة الحمير.

خلق الإناث

وتلاشى ضمير أربعين سنة من عمره.

وانتعش ضمير تسع عشرة سنة من عمرها.

كان زجاج الفايسبوك واجهة عرضا عليها مشاعرهما منذ دعوتها له غب مساء بارد، لم يكن يشعر ببرودته، بل كان الدفء يخالج دخيلته، ويوقظ في نفسه زمن الحب الجميل الذي لم يعش منه في مراهقته شيئا يذكر، لاعتبارات متعددة، لعل أهمها خجله البين، ونكوصه من مواجهة أية أنثى حتى لو كانت بجمال بلقيس، وفتنة زوجة العزيز.

من جهتها، فتنت برسوخ الرجولة فيه، فصوره التي يعرضها على صفحته منتقاة بدقة، بين تلك التي يلتقطها لنفسه قبل خروجه إلى العمل أنيقا باسما متأهبا طافحا

بالكبرياء، وتلك التي يلتقطها مستلقيا على سرير نومه بشقته التي لا يشاركه فيها أحد، شبه عريان، يركز على مفاصل بعينها كالوجه والصدر والأذرع، وتلك التي يأخذها في ملابس نوم حريرية تستحث الجسد وتنعش الروح الآبقة.

وعبر الزجاج نفذ الحب إلى القلبين.

هل هو حب صادق كالذي قرأ عنه في دواوين الشعراء العذريين؟

وهل هو حقيقي كالذي شاهدته في أفلام تركية، يحسن المخرج اختيار الشخوص التي تتقمصه، فتحجب ما دونها من اختيارات آدمية لا تليق؟

ليس مهما أن يعرفا الجواب. المهم في حالهما أن يلتقيا، فيعبرا عما يخالجهما بصدق وأريحية.

والتقيا..

ولم يكن في اللقاء كلام، وضمتهما شقته الساكنة إلا من همهماتهما المتقطعة التي لم يعرفا كيف يكبحانها، واقفين تلاحما عند المدخل مباشرة، لم يسعفا نفسيهما من

أجل منحهما مزيدا من الوقت لتهيئا روحيهما. ربما عاجلهما الشوق إلى بعضهما بعض، فعضت على شفتيه، وعض على شفتها، والتصق الجسدان عاريين، يتقطران هوسا ماجنا.

في المساء، على صفحة الفايسبوك، كتب: "كم كنت غافلا عن دعوات الجسد الآثمة".

في المساء نفسه علقت على كلماته، فكتبت ممهدة لعبارتها بقلب أحمر، ومنهية إياها بكأس ذهبية: "عندما نُصِرّ على الصيد ننال طريدتنا لحما طريا".

وعادا إلى اللقاء كل صباح، وإلى البوح الزجاجي كل مساء. مر أسبوعان على الحب ولقاءاته، ونفسها على الكتابة والتعليق. وطرقت ذات صباح، وأعادت الطرق ولم ينفتح الباب.

ولم تيأس، ظلت واقفة إلى الباب زهاء الساعة، تطرق مرة وتهاتفه مرة ثانية، حتى تعبت، وقالت في نفسها، ربما خرج لموعد لم يقل لي عنه. وغادرت منكسرة الخاطر لا من يجبر ضعفها، ويزيل شهوتها إلى جسده

القوي، ويمنح أذنها رحيقا من كلماته التي تسيل عليه كأنها الماذي. ألقت جسدها على أول كرسي صادفته في الحديقة التي تنفسح عليه العمارة التي يقطنها، وغام الفضاء من حولها، كانت تنظر إلى رجال شيوخ يلعبون الضاما بكل حرقة، ثم تلتفت إلى العمق من الحديقة حيث تقل الشجيرات، فتجد رجالا كهولا يرمون الكرات الحديدية، فتسمع لوقعها على بعضها صوتا انفجاريا، ثم تنظر في الجهة اليسرى من حيث تجلس فتصلها أصوات أطفال صغار يتدافعون ويتزاحمون على ألعاب معلقة وأراجيح مدلاة ونوابض حديدية تأخذ شكل أحصنة تعدو من غير أن تغادر مكانها. وفي خضم ذلك كله، ينبس من داخلها صوته الفاتن، فيدعوها إلى التعري، والاستلقاء على السرير.

فكرتْ في العودة إلى الطَّرْق من جديد، لكنها وجدت أنها فكرة غير سديدة، خاصة وأنّ الحديقة تشغل مدخل العمارة، وكل حركة من ممراتها التي تؤدي إلى العمارة ترقبها ولم تره يدخل أو يخرج. من حقيبتها استخلصت هاتفها، وفتحت صفحتها على الفايسبوك، ثم نقرت على أيقون صفحته، فقرأت: "قمة السعادة أن ينتظرك الآخر،

وأنت قد غادرت". أعادت قراءة المنشور، ومسحت الهواجس التي تعالت في داخلها، برغم إصرارها على الصعود إلى أعلى فقاعات تنتشر وتنفجر ليتم إعلانها.

هل تجرأ اللئيم على خيانتي؟ ما الذي أبقاه لي؟ ذكريات الحب فقط؟ ماذا سأفعل بها؟ وهل سترد لي قلبي الذي تعلق به كل هذه الأسابيع؟ كيف سأنساه بسهولة؟ لماذا لم أفطن إلى ما يحوكه؟ ولكن من قال لك إن ما كتبه يقصدني به؟ ربما وقع له حادث ما، وربما يود التعاطف مع أحدهم فكتب يواسيه، أو يود عدم لفت الأنظار... في خضم ذلك وجدت نفسها قد استقلت الباص رقم 13 الذي ألفت أن تأخذه في مشوار عودتها إلى الكلية. ومنها تعرج على قدميها إلى الغرفة التي تكتريها مع طالبات أخريات من مدينتها.

لم تعرف كيف قطعت المسافة بين الكلية والغرفة، ولا كيف غادرت من قبل الحديقة لتصل إلى محطة الباص، ولا متى وصل، ومتى استقلته. كل ذلك مضموم في هواجس لا متناهية.

في غرفتها بكت على نفسها التي منتها بالسعادة في كنفه. وفيها جففت دموعها، وأصرت على ملاحقته. هي تعرف شقته، ولديها رقم هاتفه، حتى عمله تعرف طبيعته من دون أن تدري أين يزاوله، هذا كله يعني أنها سوف تجده حيا أو ميتا.

وبدأ البحث... ولم ينتهِ.

على صفحته كتب مساء: "إذا فشلت في الحياة فاخلق فتاة أحلامك من فراغ، ومَنِّها ببيتك، وافترعها، وعش بلا مطاردة".

ولم تكن فتاته هناك لتعلق على كلماته الساحرات، واستمر خلق الإناث جيلا بعد جيل.

تمرينات على الموت

-1-

رفعت من سجدتي فغام الجالسون أمام عيني، سمعت الإمام كبر من أجل السجدة الثانية، لكن جذعي استقام بشكل صلب، فلم أقدر على السجود للمرة الثانية، تناهي إلى سمعي تسبيح المسبحين، وأدعية كثيرة متداخل بعضها في بعض، ميزت الكثير منها، لكني لم أشأ أن أستوعبها جيدا. مشكلتي الآن مع صلابتي التي لم أدر منشأها. ازدادت الأصوات وضوحا في خضم ازدياد تشنج جسدي في جلسته التي لم يتحرك منها. تنملت أطرافي فجأة، وصعد اللاإحساس فيها، كأنها جمدت من الثلج، فلم يعد الدم يجري فيها. أردت أن ألتفت برأسي لأتأكد من سلامتها من أي عض أو نهش أو لسع، لكني لم أستطع إلى الحركة سبيلا. ارتفعت الأصوات أكثر، وسرعان ما انشغلت بهالة سوداء

تحول حول رأسي، فتحت عيني اللتين أغمضتهما قبل التشنج، ولم أر غير السحابة السوداء، من خللها خرجت أيد بأعداد كثيرة، أيد متناسلة لا تنتهي، أردت أن أبعد وجهي عنها، فم أستطع، وبدافع الخوف، أغمضت عيني، وتركت الأيدي تأخذ بناصيتي، وترفعني، أحسست بجسدي يرتفع عن المصلين الذين لم يعد يصلني شيء من همهماتهم، ورميت ببصري إلى حيث كنت أجلس، فبدا لي جسدي ما يزال في جلسته المتأهبة للسجود، ولم يتحرك من مكانه. ارتفعت أكثر، وغام كل شيء فجأة، وانسحقت الأصوات مرة، وتلاشيت، ولم أعد أدري أين أنا. غير أني أرتفع.

-2-

امتد مرضي عاما كاملا، عاما بأيامه ولياليه الطويلة، تحت العذاب المضني، والألم القاتل بغير أن أموت، لعنت جسدي مرات عديدة، وقلت بأن ما يصلح له التراب وحده، والمرض حبيبه الذي يقضي عليه في متعة سادية. لم أعد أفارق الفراش، أمدد عليه، حتى يغزو الألم جنبي، فيقلبوني على الجنب الآخر، فأمكث عليه حتى يشل الألم الإحساس فيه. أقلب من جديد. حرارتي لا تنخفظ أبدا برغم الأدوية

والعقارات التي ملأت بها بطني شهورا عديدة، وبرغم الزيارات المتكررة إلى الأطباء العامين والأخصائيين، وبرغم التحاليل الطبية التي أجريتها أكثر من عشرين مرة حتى إن ذراعي مات فيها الإحساس بالوخز، ولم أعد أتألم. لم تبن عن شيء، حرارة جهل مصدرها، وبمرور الأيام وكرور الأسابيع نحلت نحولا شديدا، وبرزت جمجمتي أكثر بشكل منفر، وجحظت عيناي، وحاجتي لم أعد أتحكم في قضائها، تخرج بلا شعور، ولا أحسها حتى يسري بين فخذي دفؤها. آكل بلا شهية، فلا مذاق للطعام كيفما كان، وأنسى أني أكلت، واتهمت أهلي بأنهم لا يقدمون لي أي وجبة، ونسيت حتى اسمي، ونسيت الوجوه من حولي. وتمنيت الموت ولم يستجب، وانطفأت ذاكرتي، ومسح منها كل شيء كان يربطني بالدنيا الفانية، وصار إلى جانبي شعوران لا يبرحانني: الألم الذي يجثم في مكان ما من جسدي وروحي، وصوت الشخير الذي أسمعه مضخما بلا انقطاع. وهو الصوت الذي كان آخر شيء أسمعه قبل أن أنطفئ حيث أنا منذ شهور.

الأخبار تخرج من مذياع السيارة البيجو، والكوارث الطبيعية والبشرية في تزايد مستمر، والسياسيون يتفرجون على المشاهد دون أن تكون لديهم نية مبيتة للتدخل من مواقعهم لتقديم الحلول، ورأسي تكاد تنفجر من أثر السكر ليلة أمس، فازداد وضعي سوءا. فجأة انقلبت سيارتي، وتدحرجت جانبا قبل أن تسقط من على حافة الطريق، فتهوي بي في واد سحيق، امتد زمن استقرارها في الأسفل طويلا، وأنا بين الوعي واللاوعي خلت أن الزمن حياة كلها، فبرقت في ذهني صور لمحطات هامة من حياتي، خاصة تلك التي عانيت فيها الأمرين من سوء المعاملة أو من شمتة في المال أو المنصب أو فشل في الدراسة أو في تحين فرصة عمل جديدة. عندما استقرت السيارة المهشمة في الوادي، أحسست بالدم يسيل من جمجمتي، وبكسور في كل عضو من أعضاء جسمي، يداي على المقود ما تزالان، ورجلاي لا أحس بهما، رأسي مرتخية إلى المقود في استسلام لذيذ. لم أمت بعد، لأن صوت المذيعة ما يزال يصدر منبئا بحالة اكفهرار في طقس اليوم، كان رتيبا قاتلا.

رفعت رأسي ببطء شديد، فتراجع إلى الوراء وكأن تلك العظام التي تثبته صارت رخوة، وتلك العضلات التي تحمله خارت، فسقط على رافعة الكرسي الرأسية، ومال إلى جانب آخر، امتلأ أنفي بالدم المتختر، وفمي يسيل بالحمرة القانية، رددت الشهادة في وعي المؤمن، وغرغرت روحي الذابلة، ثم همد كل شيء حتى صوت المذياع.

قهوة الانتظار

على الكرسي تلاشيتُ، وانحلتْ أعضائي التي تجمعني. سوف لن يكون لي وجود بعد ظلِّ نَفَس سيرٍ على طريق متربة كما جندي عاد مهزوما من معركة لم يشارك فيها عن طواعية. قال القائد الى القتال! فلبى نداه، وسار وهو واثق أنه لن يعود. العود منهزما منكسرا أكبر انتصار له. ماذا سيخسر بعد؟إنني أحمل بعضي وأتحامل عليه علَّني أوصله إلى مرفإ الحياة أو شرفة الموت سيان. حملني الكرسي برغم ثقل الإعياء، وغمام الصورة، وتلاشي الأصوات من حولي. فوق ظلي مقاتل يغني لحن الهزيمة كالكئيب والمنسدر الغافل اللايُحب طعم النصر. انتظرتها على أحرَّ من الدم، ستسقط عليَّ من شرفة ما أو نافذة،أو ستخرج عليَّ من شمس كادت تغيب في الجدران التي تعلوقهوتي. ستخرج عينَ ماءٍ تندفق من جهة الشرق،

لتلاحق الأشعة الصفراء. هو آخر ما ينتظره الفارس الذي كبا عن فرسه، فتكسرت ذراعه اليمنى، وسلمت يسراه التي يدعم بها ترنحه واتزانه على درعه المشروخة نصفا. هل العود إلى المعركة سيجدي نفعا برغم انتهاء النهار؟ هل الجلوس في الانتظار تحس به تلك النائية عني؟ هل الظل يبقى وارفا إذا انطفأت شمس هذا المغيب؟أي فراغ يمسحني من أسفل ويحيط بي وأنا أشهر السيف المكلول أقاتل امرأة كأنها الجيش وحدي، عينيها وأنفها وشفتيها وعنقها وبياض صدرها الوثاب، وسخونة النفس يطفح على جليد القطب. لم تقدر السفينة أن تمخر قطع الثلج ولا أن تكسر جبال البياض القاسي، بياض الموت يلفّ سخونة الجسد الذي تجنَّد من أجل هذه الروح. هل سيخرج من أسفل الصقيع أبو منشار فيتلم الصخر الثلجي؟ قل لي أيها الجندي، فأنت العائد توًّا من المعركة، وأنا القتيل توًّا بلا صعلكة. قل لي، ولا تشح عني بوجهك التعبان، فهو الذي يفضح خيانتي، ويربك تقديرات الوطن الجريح،أنا الجالس منتظرا، ملقى على ناصية الحلم الأغبر. وأنت الغادي منفلتا، مورقا كأنك اليد اللطيفة الخالقة. خذني إليها تلك التي تكتب الشعر ملحمة والحب امتحانا بلا توقيت، وتفرخ عند قدميّ العاريتين

المدماتين بيضا أحمر وأصفر وأزرق يتدحرج، فينفقس حبا وكرها وأملا في سمفونية بيتهوفنية لمّا تكتمل بعد. هذا الانتظار ورثني الهبل، وذاك القادم متأبطا وعدَه المنفلتَ يقصدني. وأنا الجالس على الكرسي بينهما وعد لا يمكن أن يقر، وطالع تحجبه القبلة الأولى والدمعة الأولى والدفقة الأولى. وتلك الأولى لم يكن لتكون، لأن الانتظار يغلو بي.. يغلو بي.. هل أتقدم؟؟أم أغير الجلسة مستشرفا فتحة الضوء في عتمة الشفق الأسيل. سأعانق الانتظار وأعاند الجندي وأكون أنا. إلى متى حيث أنا؟ منهكا، فارغا، يتقاذف الفكرَ حجرُ الارتياب، ويدحرج كراتِ العطف وميضُ الأمل. ها أنا ذا أكتمل عربون محبة لم أدر من أي الجهات ستصيدني، ولا من أي القنوات ستنفذ إلى دخيلتي المنهوكة من حروب لم أشارك فيها ارتضاءً. أحب الوطن. نعم أحبه. ولكني على موعد مع امرأة ستفتحه فتحا جديدا، وستقفل عليَّ فيه أو تنفيني فيه. هل سأكبر داخل القفص؟أم أطير به خارج الفضاء. اِلتفت يا جنديُّ، وجُرَّني إليك أرْدِنُ وقعا كسلاحك على تراب قريب من مقهى الانتظار.

الفهرست

إهداء..... 4
إضاءة 6
أنا... وأبي 7
أنا... ونهى..... 11
المرأة والمطرقة..... 19
هذا الخارج مني..... 33
أنا... النائم المتنبه..... 39
أنا... ووحوش المدينة..... 47
أنا... واللوحة..... 53
أنا... والملك 61
أنا... والبيت الكبير 71
أنا... والمدينة..... 77
حميرالقبة..... 85
خلق الإناث 105
تمرينات على الموت 111
قهوة الانتظار..... 117
الفهرست 121

كريم بلاد

- قاص وروائي وناقد ، ولد بمدينة ورزغت بأزيلال، يعمل مؤطرا تربويا بمديرية أكادير

- صدر له:

1. أوان الحب.. أوان الحرب، رواية، دار السلام بالرباط، يناير 2014؛
2. غوانم السواد، رواية، دار السلام بالرباط، فبراير 2016؛
3. الخيط والابرة، دراسات في الابداع المغربي المعاصر، قراءات نقدية، مارس 2019؛
4. طفل المزار، رواية، دار السلام، الرباط، يوليوز 2020م؛
5. اليد اللطيفة، قصص، منشورات الراصد الوطني للنشر والقراءة، أكتوبر 2020م؛
6. بيداغوجيا التدريس المتمركزة على المتعلم في مادة اللغة العربية، بالاشتراك مع محمد بوستة، منشورات مجالس للتنمية والثقافة رقم 5، أولاد برحيل، 30 نونبر 2021

كريم بلاد، الخطيب والإبرة، الطبعة الثانية

30 dh